الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٨ — ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 178

Lundi - 30 - 11 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٧٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ رمضان سنة ١٣٥٥ — ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

بعـــد المعاهدة

بعد ليل غاشى الجوانب تراكمت على (الوادى) همومه ، وطريق دامى المسالك تشابهت على الدليل رسومه ، انجلى الغيهب الكثيف عن وضَح الفجر ، وانتهى الطريق المخيف إلى أمان الغاية ؛ فحمدنا السُّرَى عند الصباح ، ورضينا الغنيمة بعد المعركة ، وهدهدنا الأمانىّ على نشيد الفوز

كنا مقيدين لا نملك مع القيد مجال العمل ، ومحجورين لا نجد مع الحجر سبيل التصرف ، ومستذلين لا ندرك مع (الامتيازات) معنى الكرامة ، ومستقادين لا نعرف مع (الاحتلال) عبء التبعة ؛ فاذا كانت مصر الأمسِ قد مشت عرجاء فى طريق التقدم ، وجاهدت عزلاء فى ميدان العيش ، فانما كان وِزر ذلك على الغاصب الذى سلط قوته على الحق ، ومنفعته على العدل ، فحجز البلاد عن وجهتها الحرة حقبة من الدهر أوْفت على نصف قرن . أما اليوم وقد انكسر القيد ، وانتفى الحَجْر ، وتقلص الاحتلال ، وتصاغر الامتياز ، وقال لك القوى الغالب : لقد رشدت فتصرف فى أمرك ، وشببت فدافع

عن حَوزتك ، واستقللت فاحكم فى بلدك ، فلا يسمك فى تقصير عذر ، ولا يسعفك فى دفاع حجة

هذه ثروة النيل التليدةُ والطريفة ، عبثت بها أهواء القيم المفروض بالباطل ، فنقص النامى ، و بلد الحساس ، وفسد الصالح ، واعوج المستقيم ، وتنافر المنسجم ؛ فكل شيء فيها معتل يفتقر إلى علاج ، أو منتشر يحتاج إلى ضبط . فاذا قصرنا الجهد أو أكثره على تنفيذ المعاهدة ، من إنشاء الجيش و بناء الثكنات وشق الطرق ، ظل حالنا على ما كان من بؤس العيش ، ونقص الكفاية ، وعجز القدرة . وهل يكون الأمر حينئذ إلا حبس قوى الأمة على الاستقلال فى السعى إليه أو فى المحافظة عليه ؟ وهل يزيد الاستقلال على أن يكون استرداداً للحرية المسلوبة ؟ تنعم الأمة فى ظله وهى آمنة ، وتعمل فى حماه وهى حرة ، وتحكم على مقتضاه وهى سيدة ؟

إن إعداد الأمة لحمل نصيبها من أمانة الحياة ورسالة الحضارة وعهد المحالفة ، يقتضى أن تتظاهر ملكاتها الموجدة ، وكفاياتها المدبرة ، وقواها المنفذة ، على طرد الجهل منها ، ودفع الفقر عنها ، ومعالجة المرض فيها ؛ وهذه العلل الثلاث هى جمّاع العلل ، لا تجد عاهة من عاهات الجسم ، ولا آفة من آفات الروح ، فى الفرد أو فى الجماعة إلا ضاربةً فيها بعرق ، أو واصلة إليها بسبب . والأمة كلها خَلْق سَوِيٌّ كامل لا تستطيع أن تقويه وترقيه إذا عُنيت بعضو دون عضو ، وشُغلت بملَكة دون ملَكة

كل ما فينا عاطل يبغى العمل ، وباطل يريد التغيير ، ورَثٌّ يطلب التجدد ؛ وتلك مخلفات العهود السود وتركات الأجيال المريضة ، نمت فينا نمو الجراثيم يزرعها ويغذيها المحتل الذى لا يرحم ، والحاكم الذى لا يعدل ، والواغل الذى لا يعف

كان من جرائر فقد الاستقلال فى الحكم أن فقدناه فى كل شيء حتى فى الذات ؛ فنحن نفكر تابعين ، ونعمل مقلدين ، ونعيش متواكلين ، ونسعى على غير اطمئنان ولا ثقة . وقد ظهرت هذه التبعية واضحة فى الآداب والعادات ، وهى أدخل الأشياء فى بناء الشخصية وأبعدها عن التراث المشترك بين الأمم كالعلم والحضارة

ولعل أقبح آثاره ما نجد فى الشباب من رخاوة العود وطراوة الخلق ، وفى الكهول من ضراعة النفس وضعف الإرادة ؛ فإن ترك الدفاع عن أنفسنا لغيرنا كَسَبَنا طباع العيش الأبله من الوداعة والأغضاء والرضى ، فلا ترى فى الجملة من يغضب للإهانة ، ويثور للعدوان ، ويتحمس للخصومة . وإن استبداد الأجنبى بأمرنا من دوننا قتل فينا التفكير ، وأنام فينا الضمير ، ودهانا بطائفة من طبائع الاستبداد كالملق والنفاق والتواضع والأثرة ؛ فالأمة مستنيمة لهوى الحكومة ، والحكومة مستكينة لإرادة المحتل ؛ و بين طبقات الشعب ودواوين الحكم منافع مسعورة لا ترتوى ، ومحاباة مهتوكة لا تستحى ، وتوا كل غفلان لا يفيق

نعم كل ذلك كان نتيجة لفقد الاستقلال ما فى ذلك ريب ؛ ومن الممكن أن يكون وجوده علة فى عدم هذه النقائص على التدريج مسايرة لفعل الزمن ؛ ولكن الوقت ضيق والفرصة عجلى والضرورة حافزة ، فلابد لأولياء العهد الجديد أن يغسلوا أدران العهد القديم بالسموم ، ويحسموا أدواء الماضى بالكى ، ويجعلوا بين العهدين سدا من النار والحديد لا ينفذ منه إلا مصهور أو مطهَّر

نريد أن ندخل العهد الجديد فى لباس الأحرام : صدورنا نقية من أحقاد الحزبية ، ونفوسنا بريئة من شهوات العصبية ، وميولنا نزيهة عن خسيس المطامع

كنا نعيش كما يعيش السَّوام فى البر أو السمك فى البحر ، لا تجمعنا وحدة شاملة ، ولا توجهنا غاية معينة ؛ وكان ذلك أثراً محتوماً للسلطات التى كانت تتنازع الحكْم ، والتيارات التى كانت تتوزع الثقافة ، والامتيازات التى كانت تمزق المجتمع

أما اليوم فنريد أن نعيش كما يعيش الناس فى كل أمة : وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة ، لا سلطان لقوة خارجية عليه ، ولا سيادة للغة أجنبية فيه ، ولا استبداد لشركة أوربية به ؛ وَحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه ، ينعم الفرد فيها بنفسه ويأمن بها على رأيه ؛ ومجتمع راقى الطبقات مثقف النواحى ، يؤلف نافره الخلق ، ويجمع شتيته الحب ، ويرفِّه حياته التعاون ، ويؤويه إلى كنفه الله وعلم وملك . ذلك ما نرتجيه فى الحياة الجديدة ، وذلك ما نبتغيه من الحكومة الرشيدة

احمد حسن الزيات

كل امرئ وما خلق له

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

عرفت شاباً حفيت قدماه من السعى حتى فاز « بوعد » بأن يستخدم « ساعياً » أو نحو ذلك بعد أن يقر البرلمان ميزانية الدولة . ووافق البرلمان عليها وأصبحت معمولاً بها وراح صاحبنا يستنجز الوعد ويستعجل التعيين فلم يجد إلا مطاولة وإخلافاً ، فمل ذلك وجاءني يوماً وذكر لى جيرة أهله لنا فى بعض ما مضى ورجا أن أدله على وسيلة تبلغه ما يريد . فقلت له يا أخى : أما الحكومة فلا صلة لى بها ، وأنا أراك لا تستنكف أن تعمل فيها عمل الخدم وإن كنت شاباً متعلماً ، فاذا كان هذا هكذا فما أظن أن الدنيا تضيق بك فى غير الحكومة ولن تعدم عملاً فى شركة أو متجر أو ما أشبه ذلك . ولم أزل به حتى صرفته عن الحكومة ، فمضى عنى وفى نيته أن يلتمس الرزق من العمل الحر . ولم يكد يفعل حتى ساورتنى الوساوس ، فقد رأيته شاباً حيياً طيب القلب سليم النية مستقيم الفطرة لا يكاد يعرف عن الدنيا شيئاً ؛ ومثل هذا خليق أن يغرق فى محيطها الطاغى ، ولكنى لم أكن أستطيع أن أصلح ما اعتقدت أنى أفسدت ، لأنى لا أعرف أين يسكن حتى كنت ألحق به وأمحو ما وقر فى نفسه من كلامى . ولم يعد هو إلى بعد ذلك فذهب كل أمل ، فجعلت ألوم نفسى وأوسعها تقريعاً وتأنيباً ، ثم شغلتنى الحياة فنسيته

ومضت شهور لا أراه ولا أسمع به — وأعترف فأقول : ولا يرد له ذكر على بالى . وجاء الصيف واحتجت أن أقضى بضعة أيام فى الأسكندرية فنزلت فى فندق جديد على البحر عند شاطىء « ستانلى » ، فاتفق يوماً أنى خرجت أتعشى فعدت متعباً فقلت أستلقى على السرير ففعلت وأخرجت سيجارة احتجت لأشعالها أن أنهض قليلاً لأمد يدى إلى الكبريت ، وكان على منضدة صغيرة قريبة من السرير ، فما راعنى إلا حذاءان ضخمان لا حق لمخلوق فى أن يكون له مثل ما فيهما من القدمين ، ففزعت ثم تذكرت أن الذى يختبئ تحت السرير يكون هو الخائف الفزع ، فنى وسعى أن أطمئن قليلاً ، فقمت وقعدت على كرسى ودعوت صاحب القدمين الكبيرتين أن يخرج بالمفوعنه ، فخرج القهقرى — أعنى أن الساقين ظهرتا أولاً ثم الجزع ثم الكتفان ثم الدماغ .

وبعد أن خرج هذا كله رفع صاحبه وجهه إلى فاذا هو الشاب الذى غاب وانقطعت أخباره عنى فصحت به : « حامد ؟ ماذا جاء بك إلى هنا ؟ »

وكان الواجب أن ينهض وينفض التراب ويشرح لى الأمر ويفسر لى كيف دس نفسه تحت سريرى ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله بل بقى قاعداً على ركبتيه وراحتيه فضحكت وقلت له : « أظن أن على أنفك شيئاً من التراب »

فقال : « صحيح ؟ » وشرع يمسحه بكفه

فقلت وقد سرنى المنظر : « وهل تظن أنى أكذب عليك فى أمر مهم كهذا ؟ . ولكنك حين مسحت أنفك وضعت على وجهك نحو طن من التراب لأن يدك كما لا أحتاج أن أنبهك غير نظيفة »

فاتكأ على كف ورفع كفه الأخرى إلى عينه لينظر وقال : « صحيح »

فقلت : « أظن أن هنا حوضاً وماء ففى وسعك أن تغتسل وتعود نظيفاً كما كنت . . . وبعد ذلك نستطيع أن نتفاهم »

فغسل وجهه ورأسه وسرح شعره ، ونفض التراب عن ثيابه ثم التفت إلىّ وقال : « الحقيقة أن الرقاد تحت السرير حماقة »

فقلت : هذا يردنا إلى الموضوع ، فلماذا كنت راقداً تحت سريرى ؟؟ وماذا جاء بك إلى هنا على كل حال ؟ »

فقال : « تحت السرير ؟ أنا ؟ ... آه »

فقلت : « نعم . تحت السرير . . . . . هذا سريرى ؟ أليس كذلك ؟ اتفقنا إذن ! وأنت كنت تحته ... فماذا كنت تصنع تحته ... أعنى تحت هذا السرير ؟ سريرى أنا .. ؟ »

فقال : « أهى غرفتك ؟ »

قلت : « ليس اسمى مكتوبا عليها لا بأحرف من نور ولا بالطباشير ولا بالدهان ، ولكنى أظن صاحب الفندق يشهد بأنها غرفتى إذا شئت أن تسأله . . . . على كل حال يمكنك أن تصدقنى وتكتفى بما أقول »

فقال : « طبعاً ... طبعاً ... لا شك ... لا شك »

فراقنى هذا جداً ، وأدركنى العطف على هذا الشاب الذى قذفت به نصيحتى فى عباب حياة لا قبل له به ، وقلت « الآن نعود — إذا سمحت — إلى السؤال » فقال : « لقد كنت أظنها خالية . . . . وخطر لى أن خير ما أفعل هو أن أرقد تحت السرير »

فقلت : « الأمزجة تختلف ، ولكن ألا تقول لى لماذا رأيت هـذا خير ما يمكن أن تصنع ؟ أو فلنبدأ من البداية .... ماذا جاء بك إلى الاسكندرية ؟ »

قال : « هذه قصة طويلة ... »

قلت : « إنى رجل واسع الصدر .. ومع ذلك ، فى وسعك أن تحذف قصة ميلادك وطفولتك ، وأن تقفز إلى ما بعد اليوم الذى زرتنى فيه »

قال : « لقد عملت بنصيحتك »

قلت : ظاهر . . . . ولكنى — على قدر ما أذكر ، فان ذاكرتى ضعيفة كما تعلم أو لا تعلم ، — لم أوصك بالتسلل إلى الغرف التى تظنها خالية وإن كانت فيها حقيبة كبيرة وثياب معلقة ، ولا بالنوم تحت أسرة الناس »

قال : « لا لا لا . لست أعنى هذا . إنى آسف لازعاجك »

قلت : « استغفر الله ... بل آنستنى ... البيت بيتك ... أعنى الفندق .. نعم ؟ »

قال : « خطر لى أن أهرب من مصر »

قلت : « هل ارتكبت جريمة ؟ »

قال : « لا لا ... أعوذ بالله ! إنما أعنى أن الناس يعرفوننى فى مصر وقد أخجل أن يرونى أزاول عملاً غير لائق ... »

قلت : « صحيح ... مصر صغيرة جداً . . . ليس فيها إلا مليون وربع مليون من الناس ... ومثلك لا يمكن إلا أن يبرز جداً فى مثل هذا العدد الضئيل . . . . معك حق . . . وإلى أين ذهبت ؟ »

قال : « جئت إلى الاسكندرية ... لا يعرفنى فيها أحد ... وبدأت بأن صرت أبيع أوراق « اليانصيب » ولكن الناس كانوا يستريبون بى لأنى ألبس بذلة ، ويشترون من الصعيدى لابس الجلابية ... لا أدرى لماذا ؟ فتركت هذا وعملت خادماً فى مطعم ... لم أبق فيه سوى أسبوع واحد ... الحقيقة أنى لا أدرى كيف يستطيع أن يحمل المرء كل هـذه الصحون والملاعق ولا يكسر منها شيئاً ... »

قلت : « هل كسرت الصحون ، وحطمت الأوانى ؟ »

قال : « لم أكسرها ، إنما كانت هى تسقط منى »

قلت : « هذه مسألة دقيقة جداً . فلنقف عندها قليلاً ... إنها تذكرنى بابنى ... كان معى يوم زرتنى ، فلا شك أنك تعرفه »

فقال وقد أضاء السرور والاعجاب وجهه : « أكان هذا ابنك ؟ »

قلت : « لا يزال ابنى على الرغم من كل شىء »

قال : « ما شاء الله ... »

قلت : « أشكرك ... وأعود فأقول إن بائع تين مر ببيتنا يوماً فوزن لنا أقة ، فأخذها منه الصبى — أعنى ابنى فقد كان صبياً صغيراً كما لا بد أن تعرف — وأكل منها تينات فى طريقه الينا ... بلعها بلا مضغ على ما أظن ، فقد كانت المسافة أقصر من أن تسمح بالأكل الصحيح — أعنى الصحى ... المضغ اثنتين وثلاثين مرة إلى آخره — فلم يعجبنا التين ، فأعدناه إلى صاحبه ، ولا أدرى كيف عرف ، ولكنه تبين أن التين أنقص مما كان ، فسألنا الغلام ، فقال إنه لم يأخذ شيئا ، ولكن التين كان يثب من الطبق إلى فمه ... فهذا من ذاك ياصاحبى ! ثم ماذا أيضاً بعد أن طردت من المطعم ... لا بد أن تكون طردت ... أم تراك قدمت استقالة مسببة ذكرت فيها أنك لا تستطيع أن تعمل مع هذه الصحون والأطباق اللعينة التى تأبى إلا أن تماكسك وتحاورك وتغافلك وتسقط من يدك ؟ »

فتمتم قليلاً ثم قال إنه اشتغل بائعاً للبن الزبادى — اليغورت كما يسمى فى أحياء الرمل — فضحكت وقلت : لابد أن تكون قد عانيت من سلاطين اللبن مثل ما عانيت من صحون المطعم ... الطبيعة واحدة ، ولست أحتاج منك إلى بيان ما حدث ، فأنى أعرف روح هذه المادة التى تصنع منها الصحون والسلاطين »

فقال بلهجة الجد المضحك : « الحقيقة أنه أمر غريب .. لقد كان يخيل إلى أن شيئا فوق رأسى يحرك الطبلية ويميلها فتتسابق السلاطين الى الأرض »

قلت : « معقول . . . . معقول . . . . شيطنة معهودة من

كل ما يصنع من هذه المادة المكهربة » .

ولا أطيل ، فما أردت من إثبات هذا الحوار إلا أن يرى القارىء مبلغ سذاجة هذا الشاب وبراءة نفسه وطيب خيمها ، وقد علمت منه أنه يشتغل ، خادما أو « ساعياً » عند قصاب ، وأنه جاء الى الفندق — كما يفعل اليوم — بمقدار اللحم المطلوب فوضعه قرب باب المطبخ قبل أن يسلمه الى رجال الفندق ، ووقف يحادث اللبان ، فجاء كلبان ضخمان وأعملا أسنانهما فى اللحم ، وأقبلت القطط — لا يدرى من أين — فاختطفت ما بقى ؛ وظهر صاحب الفندق ، فذهب صاحبنا يعدو ، بلا عقل ، فاذا به يرى نفسه بين الغرف ، وكان اليوم يوم أحد ، وليس عليه بعد ذلك عمل ، وقد قبض أجره الأسبوعى ، فرأى أن يرتدى بذلته ، ليتسنى له بعد أن يسلم الرسالة أن يخرج للرياضة والتنزه من غير أن يحتاج أن يعود الى غرفته فى « المكس » . والتقى فى طريقه بين الغرف بأحد النازلين فى الفندق خارجا من غرفته ، فخاف ودخل غرفتى فألفاها خالية ، فدس نفسه تحت السرير ، بلا تفكير ، حتى أخرجته . . .

فسألته : « ألا يمكن أن يكون هناك عمل تصلح له ، ويصلح لك . . . كالحلاقة مثلاً ؟ »

فحدق فى وجهى مستغرباً وقال « إيه .. أعنى .. معذرة .. »

قلت : « لا بأس ... أردت أن أقول ألا يمكن أن تكون شيخ طريقة مثلاً ؟ ؟ ، ولكن هذا يحتاج الى ذكاء وحذق وبراعة وجرأة .. ولاشك أنك ذكى حاذق ، وشجاع وبارع ، ولكن الأمر يحتاج إلى ضرب آخر من هذه المزايا ، فقل لى .. لابد أن يكون هناك شىء تتقنه . . . فماذا هو ؟ فكر ... اقدح زناد هذا الفكر . . . أرنا همتك . . . »

فأطرق ملياً ثم قال : « لو كان عندى رأس مال لاقتنيت غيّة . . . ولكن . . . »

فقلت : « هل سمعتك تقول « غيّة » ؟ »

قال : « نعم ... غية ... »

قلت : « مفهوم ، ولكن ألا يمكن أن تجعلها أسهل . . . . أعنى أن تفسرها ؟ » قال : « غيّة ... ألا تعرفها ؟ »

قلت : « لا بد أن أكون أعرفها ... ولكن ينقصنى أن أعرف ماذا هى ؟ فماذا هى ؟ » قال : « الغيّة هى ... هى الغية »

قلت : « هذا أحسن ... »

قال : « تعرف ماأعنى ... الحمام ... تبنى له بيتاً من الخشب فوق السطح ، وتعنى به »

ففهمت وسألته « ولكن هل هذا عمل يربح منه الانسان ، أم هو تسلية فقط ؟ » قال : « لست أثنى على نفسى ، ولكنى لو وجدت المال اللازم أستطيع أن أستولده ... »

قلت : « تستولد المال ؟ »

قال : « لا لا . . . الحمام . . . أربيه وأستولده . . . وأبيع منه . . . عمل رابح جداً » فخطر لى أن لعله صادق ، وأن هذا شىء يحسنه ، فسألته عما يحتاج إليه من المال فقال : إنه ادخر نحو جنيهين ، وأنه يستطيع أن يقترض من أهله نحو عشرة ، ولكنه ينقصه مثل هذا القدر للبناء وشراء الحمام اللازم ، فاقترحت عليه أن نجعلها شركة مساهمة فانطلق يحدثنى عن الحمام وطباعه ومزاياه ، ويصف لى أنواعه ويذكر لى أسماء لم أسمع بها من قبل ، فاطمأن قلبى وأيقنت أنه اهتدى إلى ما يحسن ، وعدت به إلى القاهرة وجمعت له من اخوان لى ما يكفى « لمشروعه »

ولم أكن أظن أن الحمام تجارة رابحة ، ولكنه بعد عام واحد استطاع أن يرد ما اقترض من أهله ومنا ، وأن يخبرنى أنه موفق ، وأنه يعيش عيشة راضية ، لا ترف فيها ولا بذخ ، ولكنها — على كونها عيشة كفاف — هى التى كان يصبو إليها ، لفرط حبه لهذا الطير ....

فلا يزال صحيحاً أن المرء ميسر لما خلق له

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

النقـــد

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

ليس النقد إلا ميلاً طبيعياً في الانسان إلى الحكم على ما يحس وما يرى، واختيار الأحسن من ذلك. ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة في كل أمة؛ بل هو ضروري لتقدم الأدب: يقفه على مواضع إحسانه ويظهره على مواقع تقصيره، ويجلو أمامه غاياته وطرائقه، ويستحثه على دوام الترقي والتزيد. فالأدب صدى الحياة، والنقد صدى لذلك الصدى، يُظهر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب في تأدية رسالة الحياة وموقع أعمالهم في النفوس

فالناقد النزيه خير صديق للأديب: يضع اصبعه على عيوبه فيتلافاها، ويستحسن إجادته فيزيده ثقة بنفسه واقبالاً على ممارسة أدبه. ولعل أروع أمثلة ذلك ما كان من ملازمة كولردج لوردزورث: فقد وجد الأخير في صاحبه — حين اعراض الجمهور عنه وغمط الجميع حقه — خير عارف بقدره معجب بأدبه، وكان لاعجاب كولردج وتشجيعه أبعد المدى في أدب وردزوث، وكان الشعر الذي كتبه في عهد صداقتهما خير ما كتبه على الاطلاق

بيد أن الأحقاد الشخصية سريعة إلى نفوس الأدباء والنقاد، والأهواء السياسية والمذهبية كثيرة الوغول على الأدب والنقد. وقد شهد الأدبان العربي والانجليزي ما لا يحصى من أمثلة النقد المغرض، وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين أو السياسيين باسم الفن والنقد. ومن أمثلة ذلك في العربية حملة الصاحب على المتنبي وإشلاؤه عليه أذنابه. وفي الانجليزية عانى أعلام الأدب أمثال وردزورث وتنيسون وكيتس حملات الرجعيين والحاسدين، وبلغ الكمد من الأخير حين هاجه بعض ناقديه فأقذع أن مات محتضراً في عنفوانه

وقد كتب الكتاب في العربية والانجليزية وغيرهما من اللغات في النقد كثيراً، وحاول كل من عالجه أن يستخلص من شتى الشواهد المنتزعة من آثار فحول الأدب قواعد عامة للادب توضح غثه من سمينه وتمين القارىء والناقد على استحسان الحسن واستهجان الهجين مما يكتب الكاتبون، ولكن النقاد لم يتفقوا بعد جهودهم تلك على شيء ذي بال، بل ناقض بعضهم بعضاً، واستجاد هذا ما استرذل ذاك، وظل المرجع الأول في نقد الأثر الأدبي إلى ذوق الناقد وتكوينه الفكري، وظل كل أثر أدبي من شعر أو نثر يحمل في طياته المبادىء التي يجب أن ينقد على حسبها، بل رأى وردزورث — وأصاب — أن الناقد الذي يُقبل على نقد أثر أدبي، وقد كون لنفسه مبادىء ثابتة غير أهل للحكم على ذلك الأثر أو غيره

وللنقد صور شتى: فالأديب هو أول ناقد لأدبه، وإنشاء الأثر الأدبي عملية مكونة من الخلق والنقد معاً؛ ومن الأدباء من يعرض ما ينشىء على رفاقه، ويستمع إلى ملاحظاتهم عليه؛ وكان ذلك معروفاً بين العرب قبل أن تذيع الكتابة، كما كانوا يعرضون أشعارهم على النقاد في الأسواق الأدبية، ولتمكن الملكة البيانية من العرب كان كثير من أمرائهم نقادة حفصاء للأدب. ويروى لعبد الملك والحجاج وسيف الدولة مع مداحهم: كثير وليلى الأخيلية والمتنبي نوادر في ذلك، فكثيراً ما كان الأمير أبصر بالأدب ونقده من مادحه؛ فلما ذاعت الكتابة وانتشرت الثقافة ظهرت كتب النقد

وكتب النقد أنواع: فمنها ما يدرس مبادىء الأدب وغاياته ووسائله ويدخل في هذا الباب كتب البيان والبلاغة والعروض والقافية، وهي كل ما يمكن أن يتفق عليه النقاد من مسائل النقد. ويشترك الأدبان العربي والانجليزي في وفرة هذا الضرب من كتب النقد الأدبي فيهما؛ ومن كتب النقد ما يدرس أديباً واحداً أو جملة أدباء على منهج خاص من الدراسة، كالكتب الكثيرة المؤلفة في دراسة شكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون وهاردي؛ ومنها ما يدرس نوعاً خاصاً من الأدب كالقصة أو الشعر الغنائي، ومن ذلك كتاب أبر كرومبي عن الملحمة؛ ومنها ما يدرس عصراً يوضح عوامل الأدب ومظاهره فيه وآثار فحوله، كالعصر الاليزابيثي والعصر الفيكتوري؛ ومنها ما يدرس من عصور

أدب اللغة جملة : وتلك هي كتب تاريخ الأدب ، وليست في صميمها إلا نقداً ، وهي حديثة العهد

وكل هذه الأنواع نادرة في الأدب العربي وبعضها لا يوجد به ، وإنما الضرب السائد فيه هو ذاك الذي توخاه مؤلفو البيان والتبيين والكامل ويتيمة الدهر : من تناول الأدباء بغير نظام وسرد بعض آثارهم والتعليق المقتضب عليها ؛ وتلك هي كتب الأدب التي لم يكن الغرض منها درس أولئك الأدباء والاماطة عن جوانب نفسياتهم وأسرار نبوغهم ، بل كان الغرض اقتطاف أطايب آثار المتقدمين وتقديمها للمتأدبين السالكين سبيل الأدب الطالبين أسرار بلاغة العرب ، فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم ، بل إخراج الأديب المقبل

وقد استفاد النقد في الانكليزية كثيرا بتقدم العلوم الحديثة حتى فاق النقد العربي في نواح شتى : فتقدُّم علم التاريخ علَّم النقاد أن يهتموا بحالة العصر الذي يدرسون من حيث السياسة والاقتصاد والمذاهب السائدة ؛ وتقدُّم علوم الاجتماع علمهم أن يهتموا بالبيئة التي نشأ فيها الأديب الذي يدرسون والصفات التي ورثها عن أسرته ، ومزاجه النفسي وتكوينه الجسمي ، وأثر كل ذلك في أدبه ، فجاء النقد الانجليزي الحديث واضح المناهج بين الأسباب والنتائج ، وأبرزَ للعصور والأعلام صوراً جلية وشخصيات متميزة

أما نقاد العرب فكانوا أكثر اهتماما بدرس فنون الأدب وأساليب الصناعة منهم بدرس الأشخاص والعصور ؛ وقد أسهبوا في درس الفنون التي فشت في أدبهم واستأثرت بمعظم نثرهم وشعرهم : كرسائل الأمراء والنسيب الاستهلالي والمدح والهجاء والرثاء ، وهي المناحي التي لم تظفر من أدباء الانجليزية ونقادها بالتفات ، فقسَّم قدامة بن جعفر مثلاً الممدوحين الى ضروب : فملوك ووزراء وكتاب وقواد وسوقة ، وحصر صفات المدح في أربع : الشجاعة والعدل والعقل والعفة ، يجمعها قول زهير :

أخي ثقة لا تُهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
فمن مثل حصن في الحروب ومثله لانكار ضيم أو لخصم يجادله

والناظر في كتب النقد في الأدبين العربي والانجليزي ، يرى — عدا ما تقدم — فروقا واضحة بين نقدي الأمتين كالفروق التي يرى بين أدبيهما ، بل يرى مواضع الاختلاف واحدة في الحالتين ؛ ولا غرو فالنقد كما تقدم صدى الأدب ، بل إن النقد والأدب يتجاوبان فيما بينهما صدى مستمرا طوال العصور ؛ والخصائص التي تغلب على أحدهما لابد أن تغلب على الآخر ، ومن ثم نجد بين النقد في العربية والنقد في الانجليزية ما نجد بين أدبي اللغتين من فروق في نواحي المحافظة والتجديد ، والتأثر بالأثر الأجنبي ، والمعنى واللفظ ، والفنون وهلم جرا

فنزعة المحافظة هي الغالبة على نقاد العربية ، وقل منهم من دعا إلى تجديد صحيح ، وذلك ابن الأثير مثلاً يزعم أنه مجدد بذ الأوائل ثم يأتي بأمثلة من تجديده فاذا هي محافظة مغرقة وتقليد مفرط ؛ وأغلب نقاد العربية يقدسون المتقدمين دون تأمل ، ولا يرون عن مناهجهم حولاً ويضعونهم فوق متناول النقد . وذلك أبو علي الحاتمي يحسبه أتى بجديد حين مثل القصيدة بالانسان في تناسب خلقه ، فلا ينشب أن يقول : « وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة » ، فهو لا يتصور القصيدة إلا نسيباً ومديحاً كما فعل الأوائل

وتتجلى نزعة المحافظة في النقد العربي في أمرين : غرضه ، وممارسيه ، وهما أمران متصلان أحدهما بالآخر ، فقد كان غرض كتب الأدب والنقد في العربية كما تقدم وقف الناشيء المتأدب على بلاغة المتقدمين ، وتفهيمه أسرار إعجاز القرآن ، لينحو منحى أولئك المتقدمين ويضرب على وتيرتهم ، فكان غرض النقد الأول تعليم المتأخرين كيف يقلدون الأولين

ولم يمارس النقد فحول الكتاب والشعراء ، ولم يؤثر عن فحول العربية مما يدرج تحت عنوان النقد إلا شذرات مقتضبة بعيدة عن التنظيم ، كوصية عبد الحميد لمعشر الكتاب ونصيحة أبي تمام للبحتري ؛ وربما ثار بعض الشعراء بما درج عليه زملاؤهم من تقاليد ، كثورة أبي نواس بالوقوف على الديار في مثل قوله :

لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وتمرُّد المتنبي على النسيب الاستهلالي في قوله :

إذا كان شعرٌ فالنسيب المقدَّمُ أكلُّ أديبٍ قال شعراً متيم ؟

ولكنها كانت خطرات عابرة لم تُكوِّن مذهباً ولم تنير سنة ، بل لم يتبعها قائلوها أنفسهم وجاروا التقاليد الجارفة فيما

نظموه ، وإنما مارس النقد فى العربية المقلون فى النثر والشعر كالجرجانى وأبى هلال العسكرى ، أو من لم يؤثر عنهم شىء ، وهكذا كان الأدباء فريقاً والنقاد فريقاً آخر

أما فى الانجليزية فاختلط الفريقان ، وكان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضاً ، وكان زعيم كل نهضة أدبية هو أيضاً زعيم النقد فيها : فكل من بن جونسون ودريدن وپوب وصمويل جونسون ووردزورث وكولردج وديكونسى وماكولى وماثيو أرنولد ورسكن ، كان كاتباً أو شاعراً كما كان ناقداً ، وذلك لعمر الحق دليل حيوية الأدب وروح التجديد فيه : فان يكون الأديب أديباً حتى يكون له رأى فى الأدب والحياة ينضح عنه فى كتاباته النقدية ، كما يصدر عنه فى آثاره الأدبية ، وكلٌّ من دريدن وپوب ووردزورث قد استجد مدرسة فى الأدب لا بأشعاره فقط ، بل بنظرياته فى النقد . فبينما كان غرض النقد فى العربية المحافظة على مناهج المتقدمين ، كان فى الانجليزية ابتداء حركات جديدة

ولا ريب أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنثر هم أدرى الناس بنقدها ، لأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده ؛ والأديب الذى يعلن للناس نظرياته النقدية مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلةً مؤيِّدةً لتلك النظريات ، كما فعل وردزورث فى أغانيه الشعبية ومقدمته النثرية لها ، أحرى أن يُتَّبَعَ من الناقد الذى لا يمارس الأدب ، وإنما يملى على الأدباء آراءه وهو بنجوة عن محيطهم ، فمن أعجب ظواهر الأدب العربى تنحى فحوله عن مضمار النقد ، وتركهم مجاله لعباد القديم ومقدسى السلف

ولتقديس النقاد للقديم وقفوا موقفاً متناقضاً : فكانوا ينكرون على الأديب أن يحيد عن مناهج القدماء ، ثم ينكرون عليه أن يتداول معانيهم التى سبقوه اليها ، وصرفوا جانباً عظيماً من اهتمامهم إلى تتبع سرقات الشعراء ، فكتاب الوساطة للجرجانى أغلبه جهد ضائع فى تقصى المعانى إلى مواطنها الأولى من أشعار الأجيال السالفة ، وتمزيق القصائد بيتاً بيتاً ؛ والحكم على الشعراء بالاختلاس لأوهى الشبهات اللفظية

وكان نقاد العربية أكثر التفاتاً إلى الألفاظ منهم إلى المعانى ، وعد أكثرهم إحكام اللفظ ميزة الاديب الفحل ، وعدوا المعانى مشاعا بين الجميع ، قال أبو هلال العسكرى : « وليس الشأن فى إيراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه » ، وقال ابن الأثير « ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوِّج بين لفظتين ؛ فالعبارة عن المعانى هى التى تخاب بها المقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى »

ولهذا صرف أكثر النقاد همهم إلى خصائص الألفاظ وضروب الأساليب ، وأسهبوا القول فيما سموه علم البديع ، واستقصوا أقسام الجناس والطباق والسجع ، وطُرُق تضمين الآيات وحَلِّ الأشعار ؛ ووجود علم البديع فى العربية دون الانجليزية برهان ناطق على شديد اهتمام نقاد العرب باللفظ ؛ وكان للنقاد والأدباء معاً إيمان وطيد بمقدرة اللغة على أداء أى معنى ، وثقة لا تتزعزع فى تفوق اللغة العربية فى الفصاحة على غيرها من اللغات ، وكانوا يرون ذلك ميزة العرب على غيرهم من الأمم التى بذتهم فى شتى العلوم

أما موقف جمهور الأدباء الانجليز من اللغة فكان غير هذا : فهم وإن لم يغفلوا أهمية الصياغة اللفظية وضرورة تمكن الأديب من اللغة ووقوفه على أسرارها ، ظلوا يعدون اللغة وسيلة لا غاية ، وسيلة للتعبير عن خوالج النفس ، بل عدَّها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية إلى تلك الغاية ، يجب على الأديب أن يستفرغ جهده ليجعلها تؤدى غرضه ؛ فلم يهتم أدباء الانجليزية ونقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها المموه ، بل استعانوا بمعانيها المصطلح عليها ، وجرس حروفها ودقة اختيارها والملاءمة بينها ، واشتقاقها وخلقها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية المتخيلة على ما يجب ، وتصوير الجو العاطفى أو المنظر المرئى : من رهبة أو جذل أو سكون أو سرعة ، ويفاضل النقاد الانجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويعها لأغراضهم على هذا النحو ، لا حسب حظوظهم من المحسنات البديعة ، ويقولون إن الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعتمد على المعنى المجرد للفظ ، والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية

ولما كان إيمان العرب بتفوقهم البيانى كما تقدم ، لم يهتموا

بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبي كثيراً ، فهم واضعو علوم البلاغة فى لغتهم ، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقد نهجهم الخاص بهم ، وجدهم فى هذا السبيل جسيم جليل ؛ أما الانجليز فجعلوا النقد الأدبى الأجنبي دائماً نصب أعينهم ، قديماً كان أو حديثاً ، فما كتبه أرسطو ومما نظمه هوراس فى النقد نشأ النقد الأدبى فى الانجليزية ، وغُذّى بعد ذلك بكتابات دانتى وبوالو ولسنج وجيته وسنت بيف وتين ؛ فالناقد الانجليزى يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفريق

ولا ريب أن اشتمال النقد الانجليزى على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر : فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجه القرائح فى العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ، وربما بالأدب أن تثقله القيود وتفسده التقاليد ، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة إتقان الناقد فى أدب ما أدباً أجنبياً واحداً على الأقل ، تزداد فائدته له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلى

فأكثر النقاد الانجليز كانوا كما تقدم من أعلام النظم والنثر ، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبية ، وما كُتب فيها فى النقد ، ثم هم كانوا — ولا سيما متأخروهم — مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب ، واقفين على ما كُتب فى نقدها ، بل كان منهم من جَمعَ بين نقدها والنقد الأدبى : فدريدن واضع أساس النثر الانجليزى الحديث كتب رسالته فى « الموازنة بين الشعر والتصوير » وكذلك جمع لام وثكرى وركسن بين نقد الادب ونقد التصوير أو النحت ؛ ولا ريب أن تفقه الناقد فى تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر فى الأدب وصدق النقد له ، لتشابه الفنون فى وسائلها وغاياتها

فالناقد الانجليزى كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه : لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظماً ونثراً فهو أدرى بدخائله ولأنه مطلع على الادب الأجنبي والنقد الاجنبى ، فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه ، ولأنه متبصر فى الفنون فهو أعلم بمناحى فنه الخاص — الأدب — ومن ثم حفل الأدب الانجليزى بالدراسات القوية لعصور الادب وفحوله وفنونه ، وجاء تاريخه أوضح منهاجاً وأبين معالم من تاريخ الأدب العربى

فخرى أبو السعود

صور سياحة

أيام فى سويسرا

بقلم سائح متجول

غادرنا باريس فى منتصف الليل قاصدين إلى سويسرا ؛ وإذا كنا قد هبطنا باريس فرحين مغتبطين بزيارتها والتمتع برؤية معالمها ومعاهدها التاريخية ، فقد غادرناها أيضاً دون أسف ، بعد أن تركت فى نفوسنا صوراً أخرى غير تلك الصور الخلابة التى ألفناها فى كتب الأدب وفى المقالات والفصول الرنانة ؛ وسار بنا القطار ينهب الأرض ليلاً متجهاً نحو الالزاس ، فلما أسفر الصبح كنا نخترق أراضى الالزاس مارين بتلك المواقع الشهيرة فى تاريخ الحرب والسياسة مثل بلفور ومياهوز وغيرهما ؛ وقد لاحظنا مذ بدأنا نجوز الالزاس أننا نكاد نخترق أرضاً غير فرنسية ، فالناس يتحدثون بالألمانية المحرفة (أو الالزاسية) فى كل مكان حتى موظفى القطار يخاطبون الركاب بالألمانية ، وكل ما هنالك من طبيعة ومناظر وأشخاص يكاد ينطق بأن الالزاس ليست فرنسية فى طابعها وفى روحها ، وإن كانت السياسة ومصاير الحرب قضت بأن ترد الالزاس واللورين إلى فرنسا عقب انتصارها فى الحرب الكبرى

ووصلنا إلى الحدود السويسرية فى الصباح الباكر ، ودخلنا محطة بازل (أو بال) حيث أجريت الاجراءات الجمركية فى أدب وظرف ؛ وشعرنا فى اللحظات القليلة التى مرت حتى وصولنا إلى الفندق أننا نجوز إلى محيط آخر أرق خلالاً ومدنية من محيط فرنسا والشعوب اللاتينية كلها ؛ وإنك لتأنس نفس الشعور عند ما تخترق الحدود الايطالية مثلاً إلى النمسا ، فتشعر فى الحال أنك غادرت فى إيطاليا محيطاً أقل مدنية وخلالاً

وسويسرا موطن السياحة بحق ، والسياحة أهم مواردها القومية ، ولهذا تعنى ولايات الاتحاد السويسرى ومدنه المختلفة بتنظيم شؤون السياحة أحسن تنظيم وتذيع عن سويسرا ومصايفها ومشاتيها ومناظرها ونزهها نشرات بديعة جذابة ، وتعنى بتنظيم

كل ما يتعلق براحة السياح ورفاهتهم مثل الفنادق والمطاعم وطرق المواصلات والألعاب والنزه ولا سيما النزه والألعاب الشتوية الجبلية والثلجية التي اشتهرت بها سويسرا ؛ والفنادق السويسرية حسبما رأيناها في بازل وتسيريخ (زيوريخ) فنادق من الطراز الأول من حيث النظام والنظافة وما يتجلى فيها من الأناقة وحسن التنسيق ، وكذلك المطاعم والمقاهي يبدو عليها طابع الأناقة والبهجة والذوق الحسن ؛ ونستطيع أن نقول إن مدينة صغيرة مثل بازل أو تسيريخ تتمتع بمجموعة من الفنادق والمطاعم الأنيقة لا توجد في مدينة عظيمة كباريس ، التي ما زالت فنادقها متأخرة من حيث الفخامة والتنسيق والرفاهة نحو نصف قرن عن فنادق العواصم الأخرى

غير أنه لابد أن نقول هنا إن السائح يدفع لهذه الأناقة والرفاهة في سويسرا ثمناً غالياً ، ذلك أن موجة من الغلاء المرهق تعم سويسرا ؛ وقد كانت سويسرا وقت زيارتنا لها في أغسطس من أشد الدول تمسكا بقاعدة الذهب ، وقد كان الجنيه الانكليزي يساوى ١٥ فرنكا سويسريا فقط ؛ ولم يمض علينا في بازل يوم واحد حتى أدركنا فداحة هذا الغلاء الذي ينغص على السائح كل شيء خصوصاً إذا كان يحمل نقداً خارجا عن عيار الذهب كالجنيه الانكليزي أو المصري ؛ فالسائح المتوسط لا يستطيع أن يعيش في سويسرا عيشة لائقة مريحة بأقل من ٢٥ الى ٣٠ فرنكا في اليوم (١٦٠ الى ٢٠٠ قرش) ، واليك بعض الأمثلة العملية ؛ فأجرة الغرفة في فندق متوسط تساوى من ٦ الى ٨ فرنكات يومياً (والفرنك ستة قروش ونصف) وأجرة الحمام فرنك ونصف ووجبة الطعام في مطعم لائق تساوى ٣ — ٤ فرنكات ، والقهوة أو قدح البيرة يساوى فرنكا ، وهكذا ؛ وأذكر أنني دفعت حين وصولي الى محطة بازل نحو ثلاثة فرنكات (عشرين قرشاً) أجرة لحمل حقيبتيّ من المحطة الى الفندق الذي لا يبعد عنها أكثر من مائة متر ودفعت مثلها حين سفري من بازل ، ووقع مثل ذلك كرة أخرى حين وصولي الى تسيريخ وسفري منها ؛ وهذا من أشنع ما لقيت من صور الغلاء ، وتقضي تعريفة الحمالين الرسمية بأن يدفع المسافر نصف فرنك (خمسين سنتا) عن كل قطعة ، وأن يضاعف هذا الأجر ما بين الساعة العاشرة مساء والساعة السادسة صباحا ، ولا يتعدى عمال المحطة باب الخروج حيث تقف عربات التاكسي ، وعندئذ يتسلمك حمال الفندق أو تركب التاكسي ، وكذلك لا يسمح لحمال الفندق أن يتعدى باب المحطة ؛ ومن ذكريات هذا الغلاء الشنيع أيضاً أنني دفعت فرنكين ونصف (١٧ قرشا) أجرة لقص الشعر ؛ وهكذا قضينا بضعة أيام نكتوي في بازل وفي تسيريخ بنار هذا الغلاء الشنيع الذي لا يكاد يلطف من وقعه شيء

ولقد اشتهرت سويسرا بأنها بلد السياحة ، وقد حبتها الطبيعة فعلاً وحبت مجتمعاتها بكل ما يجذب السائح ؛ ولكن الظاهر أن سويسرا تعول قبل كل شيء على السياحة الغالية أو السياحة المترفة ؛ ولما كانت السياحة مورداً قومياً أساسياً في سويسرا ، فالظاهر أنها تعمل كل ما وسعت لاستغلاله في جميع نواحيه . وحالة الرخاء المستمر التي تتمتع بها سويسرا تساعد في ارتفاع معيار العيش ، وتحمل الشعب السويسري على طلب المزيد من ثمار هذا الاستغلال ؛ ولكن الظاهر أن سويسرا شعرت أخيراً كما شعرت فرنسا أن هذا المورد قد أصابه النقص وأن دولا أخرى مثل ألمانيا وإيطاليا والمجر قد أخذت تجذب أنظار السياح وتستغل مورد السياحة بما قدمته من تسهيلات في النقد والسكك الحديدية ، وأن الخروج عن معيار الذهب في مسألة النقد وسيلة لاستدراك هذا النقص . وقد خرجت سويسرا فعلاً كما خرجت فرنسا عن معيار الذهب ، وخفضت قيمة الفرنك السويسري نحو ٣٠ ٪ بحيث أصبح الجنيه الانكليزي يعادل ٢١ فرنكا ؛ وربما كان في ذلك تخفيف على السائح وتخفيض معقول في مستوى المعيشة ، ولكن ذلك يتوقف دائماً على المحافظة على مستوى الأثمان القائم ، فاذا ارتفعت الأثمان تبعاً لنزول النقد ، فأن السائح لا يستفيد شيئاً ويبقى الغلاء المرهق حيث هو

***

ولنعد الآن إلى بازل ؛ فهي مدينة أنيقة سكانها نحو مائة وخمسين ألفا ، وتتمتع بموقع بديع على منعطف نهر الراين ، والراين يخترق بازل ، ولكنه يبدو متواضعاً هادئاً كأنه نهير صغير ؛ وفي ظاهر بازل من الغرب تجتمع حدود أمم ثلاثة ترى على قيد البصر

سويسرا وألمانيا وفرنسا ؛ وفى بازل أقدم الجامعات السويسرية يرجع إنشاؤها إلى نحو خمسمائة عام ، وبها مكتبة كبيرة تضم نحو نصف مليون مجلد ، وعدة كنائس قديمة أشهرها وأفخمها كنيسة سانت مارتن . وشوارع بازل وطرقها حسنة التخطيط ، ومبانيها منسقة متوسطة الارتفاع ؛ وأهم ميادينها ميدان المحطة Bahnhof's Platz وعليه يشرف معظم الفنادق الكبيرة ، ومنه يتفرع بحذاء المحطة أهم شوارعها ، وهو « الشارع الحر » Freie Strasse وهو الممتد فى وسطها حتى النهر ؛ ولبازل ضواح بديعة يمتد اليها خط ترام خاص من المدينة ، يمر خلال مجموعة ساحرة من الوديان النضرة والقرى النظيفة الساحرة ؛ ولقد ذهبنا ذات صباح نجوس خلال هذه المناظر المتعة ، وقصدنا إلى قرية دورناخ Dornach حيث يقوم معهد « الجتيانوم » Goetheanum فوق أكمة عالية تصل اليها من طرق صاعدة تقوم على ضفافها المنازل والحدائق الأنيقة ؛ ولما وصلنا إلى « الجتيانوم » بعد رياضة مجهدة ألفينا بناء ضخما أبلق ، قد بنى على الطراز الاغريقى والقوطى ؛ فجزنا إلى داخل المعهد وقابلنا سكرتيره ووقفنا منه على تاريخ المعهد ونظمه وغاياته ؛ وخلاصة ما علمناه أن « الجتيانوم » أو (معهد جيته) معهد دولى للعلوم العقلية ، سعى إلى تأسيسه الدكتور رودلف شتينر العلامة النمسوى فى سنة ١٩٢٣ ، وبنى على طراز الملاعب اليونانية القديمة ؛ وأريد به أن يكون معهداً دولياً حراً لترقية العلوم العقلية يجرى على مبدأ الثقافة الحرة المطلقة من كل قيد ؛ وأنشئت فيه أقسام للتربية والفنون الموسيقية والطب والعلوم والفلسفة . وفى الصيف تلقى فى المعهد دروس ومحاضرات دورية من أشهر الأساتذة فى مختلف العلوم والفنون فيقبل على سماعها جمهور كبير من الزائرين ، ومعظمهم من الانكليز والامريكيين والألمان ، وقد شهدنا كثيرين منهم حول المعهد وداخله ؛ وهنالك على مقربة من المعهد عدة فنادق منزلية تأوى زوار دورناخ ، وإلى جانبه فوق الأكمة العالية مقهى أنيق يقصده الرواد والمتنزهون

* * *

وبعد بازل قصدنا إلى تسيريخ (زوريخ) ، وهى أكبر المدن السويسرية وسكانها نحو ثلثمائة ألف . وتقع تسيريخ على نهر ليمات أحد أفرع الراين عند مصبه فى بحيرة تسيريخ ، ويخترقها نهر ليتام وقد أنشئت عليه قناطر مدرجة لحبس المياه ودفعها بقوة لتوليد الكهرباء ؛ وتقع بحيرة تسيريخ فى نهاية المدينة شرقا ، وهى من أبدع المناظر البحرية التى يمكن تصورها ، وتكثر فيها القوارب البخارية المعدة للنزه القصيرة ، وكذلك السفن المعدة للحفلات الراقصة ؛ ويمتد أكبر شوارع تسيريخ ، وهو شارع المحطة Bahnhof's Str ، ما بين المحطة والبحيرة ، وهو شارع طويل فخم وبه معظم البنوك والمحلات التجارية وإدارات الصحف الكبرى وقد رأينا منها إدارة « جريدة تسيريخ الجديدة » Neue Zuricher Zeitung ؛ وفى تسيريخ أيضاً جامعة ، ومتحف تاريخى كبير ، والمدينة على وجه العموم كثيرة النظافة والاناقة تفيض حركة وحياة ، غير أننا عانينا بها نفس الغلاء المرهق الذى أشرنا اليه .

وقد رأينا فى الأيام القليلة التى قضيناها فى هذه الربوع السويسرية الجميلة من خواص المجتمع السويسرى كل ما يحمل على التقدير والاعجاب ، فسويسرا الألمانية بلا ريب من أرقى بقع أوربا وأعظمها حضارة ، والشعب السويسرى (الألمانى) من أذكى الشعوب الأوربية ، وأرفعها ثقافة وخلاقا ؛ فحيثما سرت رأيت أرق مظاهر النظافة والصحة والعافية ، وألفيت الشباب النضر يتدفق حياة وبهجة ؛ وتمتاز الفتاة السويسرية برشاقتها ومظاهرها الرياضى ولونها النضر ، وجمالها الطبيعى الذى لا تكلف فيه ولا صناعة ؛ وفى جميع طبقات المجتمع تسود الرقة والأدب الجم وحسن المعاملة والأمانة ؛ ويلقى الغريب كل معاونة وتقدير واحترام ؛ واللغة الألمانية هى اللغة السائدة فى هذه المنطقة من سويسرا ، وهم يتحدثونها بظرف ورشاقة ، ولكنك تستطيع التفاهم أيضا بالانكليزية والفرنسية والايطالية فى معظم الأحوال

ولقد أنستنا هذه الأيام القليلة المتعة ، وما لقيناه خلالها من شمائل هذا الشعب الرفيع الدمث ، ومظاهر حياته وذكائه ونشاطه التى تحمل على الاعجاب ، ما لقيناه من متاعب الغلاء المرهق الذى يرجع بالأخص الى تفاوت سعر النقد ، وأنستنا بالأخص كثيرا مما لقينا فى فرنسا وباريس من مظاهر التكلف والخشونة والرياء والجشع ، وكل ما هنالك من مظاهر حضارة تؤذن بالانحلال

(* * *)

إلى من يسمع !...

مقصورة : Villa غلالة : Pyjama

للأستاذ كرم ملحم كرم

عقدنا الأمل الأكبر على المجمع اللغوى المنعقد فى مصر ، وتوسمنا فيه حافزاً للخروج باللغة العربية عن جمودها وهى البعيدة عن روح العصر ، الضيقة المسالك بمستنبطات العلم الحديث ، والفسيحة الفجاج بما لنهضة اليوم غُنية عنه . فكان من المجمع الكريم أن خيبنا خيبة فاضحة . فما جاد علينا رجاله الميامين — دفع الله عنهم الخيبة ! ... — بكلمة واحدة من الكلمات التى خلقوها أو اشتقوها يجوز الركون إليها . فأتحفونا بالوحشىّ الغريب النافر منه حتى ابن البادية الجاثم بين كثبانه ونخيله ، ورمونا بمثات « المستشزرات » ونحن نضيق بواحدة منها

ألا عفا الله عن الأرزيز والجاز وأخواتهما . فمن يحفظها ويجهد قلمــه فى إثباتها والذوق نفسه يمجها . أنعتمدها نكاية بالذوق ؟

ليسلم المجمع اللغوى السامى المقام أنه كفر بالرسالة المفوض أمرها إليه ، فزلت به القدم فى الخطوة الأولى . وإذا أبى إلا الصراحة قلنا إن ثقتنا به ذهبت عنا ، خصوصاً والمفروض فى إنشاء المجامع العلمية اللغوية رفع اللغة إلى مستوى روح العصر ، لا التقهقر بها إلى ما بعد عشرات الأجيال ، فيتخاطب بها جيل اليوم كما كان يتخاطب بها الأعراب فى البادية

والأعراب أنفسهم نفروا من كل لفظ غريب ، فهل يجوز لمن يفاخر أسلافه بكونه ابتدع الطيارة والموّاج والمذياع أن يتكلم بلغة راعى الشويهة والبعير ، وضارب خيام الوبر ، ومفترش البلس ؟

إنها لأضحوكة . والمجمع اللغوى فى مصر وفر لنا هذه الأضحوكة ، وربما شاء بها أن ينفى عنا جهامة الأيام السود . فالشكر له كل الشكر . على أنه كان فى وسعه أن يثير فينا روح الاعجاب بدل أن يجرنا إلى الضحك فى موقف الجد . فما يدعو رجاله إلى التمسك بالكلام العويص ومجالسة الشنفرى والملك الضليل والهمذانى وصاحبنا الفرزدق وإمامهم زهير والحطيئة وعمر بن أبى ربيعة ولا غضاضة بجرير ؟ . . . فهؤلاء ما حشوا أشعارهم بما لا يُفهم من وحشى غليظ ، بل جاؤونا بكلام يقال اليوم وغداً وسميعه طروب له راض عنــه ، لا يحتاج أبداً إلى القاموس كى يدرك ما يقرأ ويقع فى أذنيــه . فكأنه وهو يصغى إلى هذا النفر من الشعراء فى حضرة خطيب من أبناء القرن العشرين !

وعندنا أن السادة أعضاء المجمع اللغوى الزاهر لو استشاروا أذواقهم لوقعوا على غير هذه المتكاكآت المفرنقعات . ولكنهم حرصوا على الشاذ فرموا أنفسهم بكل شذوذ . وما ضرّهم لو نهجوا نهج الأقدمين فى إثبات الكلمات الدخيلة الشائعة على الألسن والأقلام . وإذا أبوا إثباتها كما هى فليدوروا حولها بما لا تبعد بينهم وبينها الآفاق . فان يروا من الحيف أن نقول « تلفون » و « فونوغراف » و « بيجاما » فما عليهم إلا أن يقاربوا بين هذه الكلمات وكلمات عربية مشتقة أو أن يخلقوا كلمات جديدة غير وحشية تدل عليها

أنا لا أرى اللغة تضيق بكلمة « تلفون » وقد فتحت صدرها لمئات الكلمات الدخيلة من فارسية وعبرية وسريانية ويونانية . فكما أثبتت الاسطرلاب والشمعدان والقنديل والورد والدستور والخردق والمنجنيق وما أشبه ، فى استطاعتها إثبات « تلفون » لاسيما والكلمة شاعت وباتت ملء الأفواه والأسماع . وإذا طاب لأفراد المجمع المحترمين العدول عنها فهناك كلتا « هاتف » و « ندى » وكلتاهما أفضل من الأرزيز . وليس للمجمع إلا أن يقر إحداهما لتجرى عليها الألسن والأقلام فى البلاد العربية جمعاء ، وهى ترى فى المجمع صاحب الكلمة الفاصلة فى الموضوع إن يكن ثمة تقدير للصواب والمألوف

أجل ، لم يثبت المجمع اللغوى المصرى وجوده . فكان أشبه باخوانه المجامع التى قامت فى سائر البلاد العربية وحاولت أن تخدم لغتها فسقط فى يدها وخفت صوتها ؛ وهذا من سوء

الحظ. فانه ليؤسفنا أن يجول فى الخواطر أن المجمع المصرى لا يملك الكفاية فى القيام بالواجب المفروض عليه، مع أن رجاله متضلعون من علم اللغة، ولكن ما ينفع العلم إذا ندّ عن الذوق؟...

هذه كلمات تجرح — ولا نكير — غير أنى أجرؤ على التفوّه بها فالموقف يقضى باعلانها، خصوصاً ونحن إزاء حقائق لا تجوز فيها المصانعة ولا المحاباة

لقد طلبنا من المجمع أن يلجأ إلى قاموس « لاروس » الفرنسى بترجمه إلى اللغة العربية، وكفى الله المؤمنين القتال؛ على أن يترجمه بكلمات غير ثقيلة على السمع ولا مهجورة، فلم ينزل المجمع على هذا الطلب الحق، وكان أن نفحنا بألفاظ مستغربة من مخترعاته يؤملنا أن يتوكأ عليها فى تشييد مكانتـه، وهى ألفاظ واهية كالدعامة الوشيكة الانهيار

ولو أنصفت الحكومة المصرية فى اختيـار رجال المجمع لنظمت عقده من فئة مختارة لا من علمـاء اللغة فحسب؛ بل من أساتذة كل فن. فاللغـة مجموعة شاملة لا تقف عند سيبويه ولا عند الكسائى. لا تدين بصلف علمـاء الكوفة، ولا بعناد أئمة البصرة. فالعصر يدعوها إلى جمع العـلوم كافة. ومجمعها اللغوى يجب أن يضم العلمـاء من أبناء الفنون دون ما استثناء. فيحشد فى حلقته المهندسون والاشتراعيون والأطباء والصحفيون والتجار وأرباب الصناعات، ليتفق الجميع على الكلمات المطلوبة لكل فن ومهنة. وهـذا ما غاب عن الحكومة المصرية وهى تنشئ صرح المجمع، فشاءت إصلاح اللغة وتهذيبها فكان أن قضت عليهـا بتقهقر آخر لسنا بحاجة اليه. فالمصيبة الأولى أهون من مصيبـة اليوم فى « نفثات » المجمع العاطرة

ولكن المجال لا يزال رحيباً، والمجمع قائم البنيان، ومن السهل التبديل أو الاضافة؛ فيعمد المجمع إلى محو ما رسم، أو إلى خلق ألفاظ جديدة لا تعقد فيهـا. وبهذه الوسيلة وحدها تتعادل الكفتان، ويثق أبناء اللغـة العربية بما يعلن رجال المجمع ويؤيدونه فيما قرّ رأيه عليه؛ وإلا إذا بقيت الحال كما نرى فـا على المجمع إلا أن ينسج بيده كفنه، وليس فيما اخترع واشتق كلمة تتداولها الأقلام

* * *

لى على المجمع الكريم اقتراح بسيط فما يضرُّه لو أقرّ لفظة « مقصورة » لكلمة Villa الفرنجية؟... فالكلمة تحوى معنى القصر وVilla منزل فخم لطيف يشبه القصر بعض الشبه. ثم إن كلمة « مقصورة » معناها حجرة، واللغة العربية أجازت تسمية الكل باسم الجزء، عدا أن الكلمة معروفة خفيفة الوقع على السمع، قريبة التناول، مدعاة إلى التفاخر، غير مهجورة. فمن يقول: « هذه مقصورتى!...» كمن يقول: « هـذا قصرى...!» وفى ذلك ما يرضى ذوى المطامع وعشاق الأبهة

ولقد تفضل المجمع فأطلق كلمة « ظظر » على Villa الفرنجية فما معنى « ظظر » أيها المجمع المحترم؟... وهب كان لها معنى فمن يتلفظ بها وهى ثقيلة كالرصاص، على حين أن كلمة «مقصورة» لطيفة شائعة، تسرع إلى اقتباسها الألسن والأقلام؟

وهناك كلمة pyjama فماذا يحول دون تسميتها بالغلالة، والغلالة شعار يلبس تحت الثوب، فهل ما يمنع أن تكون الغلالة pyjama؟

* * *

أقترح على المجمع اثبات هاتين الكلمتين فى قاموسه، وإذا استزادنا زدناه، وإن أبى العمل باقتراحنا طلبنا إلى حملة الأقلام أن يتناولوا اللفظين فيما يكتبون ويتحدثون به وليس فيهما شائبة

ولا يغضب المجمع أن يتصدى لانتقاده كاتب يغار على لغته ويريد لها النهوض والسير فى ميدان العصر الفسيح والخروج من فقرها اللغوى فى عهد المنطاد والسيارة والصاروخ. فهى لا تزال تعيش بذهن عتيق مثلها يوم كان البعير لديها أشبه بالطيارة، والسهم كالمدفع، والنار فى رؤوس الجبال كالمذياع والمواج

لقد عرف الشيخ ابراهيم البازجى كيف يحضر اللغة بما وفر لها من كلمات مستحدثة تماشى الذوق والعصر، أيخلو المجمع من مثيل للرجل العلامة وكلٌّ ينادى نفسه نعم الفتى؟...

* * *

نحن نخاطب من له أذنان وعينان. فليسمع المجمع اللغوى المصرى الرفيع العماد!

(بيروت) كرم ملحم كرم

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

وسطاء شر أبرياء

هذه قصة تيوبلد إسميث Theobald Smith . قصة الرجل الذى قاد الانسانية فمالت معه حيث مال إلى طريق جديد طلع عليها بأمل جديد . كان أول أمريكى سبق إلى كشف المكروب ، ولم يلحق بغباره إلى الآن منهم لاحق . أخذ يتشمم الأرض يطلب غاية ، ويستتبع أثراً يقود إلى عين ، وأفاد فى تتبعه هذا من رأى رآه الفلاحون ، وظِنّة قال بها بسطاء المزارعين ، فلم يلبث بواسطتها أن اطّلع من بحوثه على كل عجيبة غريبة . فهذه القصة ستنبئك بالذى اطّلع عليه إسميث ، وبالذى وجده من بعده من تعقّبوا آثاره

« إن فى استطاعة الانسان أن يمحو كل داء وبيء من على وجه الأرض » . هكذا قال بستور وبهذا تنبأ وهو مفلوج بعد نُصرته المعهودة على داء دودة القز التى أكسبته ذكراً وأنالته مجداً . ولعلك تذكر بأية قوة وأية حرارة ألقى هـذا الأمل فى الناس ، حتى لحسبوا أن الداءات المعْديات لا يهلّ عليها العام القابل أو على الأكثر الذى يليـه حتى تكون خبراً يُروَى . واطمأن الناس لقوله واستبشروا وأخـذوا يرقبون ما تأتى به الأيام ... واخترع بستور الألقحة فهتفوا له عالياً ، وكانت هذه الألقحة لا شك بدائع عجيبة رائعة ، ولـكنك لا تستطيع القول أنها كانت لاستئصال المكروب من على ظهر البسيطة . وجاء من بعد بستور كوخُ فأدهش الناس وأفزع عندما لعب بجرثومة السل المخُوفة حتى وجدها . ولم يكن كوخ أسرف فى وعوده ، ولـكن وعود بستور كان صداها يرن فى الآذان ، فرفع الناس أبصارهم إلى كوخ ينتظرون امّحاء السل على يديه . وجاء رو ، وجاء بارنج ، واشتبكا والدفتريا فى معركة حامية دامية دامت سنين ، هَدْهدت أثناءها الأمهات أطفالهن المناكيد ، وغنّتهم أغانى آملةً راجيةً تـملةً ومصابرةً عسى يسبق العلمُ بالشفاء أيامَهم الباقية المعدودة . وجاء متشنيكوف ، ومن الناس مَن ضحك منه ، ولـكن حتى هؤلاء أضمروا فى الخفاء أملاً قليـلاً علّ الأقدار تُتيح له برغم ثرثرته أن يُعلّم فاجوساته أكل جراثيم الأرض جميعاً

. . . نعم أخذت وطأة الأمراض لسبب مجهول تخف على ما أحسِب ، ولـكن لم يظهر عليها أنها تنوى الرحيل وتستعجل الفراق الذى أمّله الناس ، فخاب ظنهم وظلّوا على أملهم يرتقبون

ولم يطل ترقّبهم ، فالزمان الذى يجود بالرجال الفَينة بعد الفينة جاد لهم وهم فى أزمتهم هـذه برجل جديد شاب ، اسمه ليوبلد إسميث Leobald Smith ، ظهر فى أمريكا فى أوائل عشر السنوات الأخيرة من القرن التاسـع عشر ؛ وحكاية ذلك أن الأبقار فى شمال أمريكا الشمالية كانت تُرسَل جنوباً فلا تلبث أن تستقر هناك حتى تأتيها حُمى تعرف بالتـكساسية[1] فتمرض وتموت . وكذلك كانت تُرسَل الأبقار من الجنوب إلى الشمال وهى صحيحة سليمة فـكانت كأنما تبـذر على أرضه حيثما وطئت بذوراً للموت تفتك بالأبقار الشمالية فتكاً ذريعاً . فجاء إسميث وفسر هذا وهــذا ، وكتب فى عام ١٨٩٣ تقريراً بيّناً كشف للناس فيه سر هـذه الظواهر الغامضة ، وسلك به أقوم الطرق وأخصرها ، ولم يكن فيه طنطنـة ونفخ أبواق ، وهو لا يُشترى الآن لنفاد طبعتـه . فهذا التقرير أوحى إلى قُنّاص المـكروب الذين أتوا من بعده بالشىء الـكثير : فأوحى بفكرة بديعة إلى الفخور الصخاب دافيد بروس David Bruce ، وبلمحات من اقتراحات نافعة إلى باتريك منسون Patrick Manson ، ومسَّ بقَبَسه رأس العبقرى الطليانى الغضوب جراسى Grassi فجرت النار فى أفكاره اشتعالاً . والأمريكى ولتر ريد Walter Reed ، ملأه هذا التقرير ثقة ، وملأ كذلك رجاله الأبطال من عساكر وضباط ، فقاموا بمغامراتهم الخطيرة فى اطمئنان كبير ، ورفضوا زيادة فى الرواتب وآثروا عليها الشهادة والتضحية فى سبيل العلم

(١) نسبة إلى تـكساس وهى ولاية من الولايات المتحدة فى أقصى الجنوب تجاور المكسيك وتقع على خليجه

فأى رجل كان إسميث هذا الذى يجهله الأمريكيون إلا آلافاً قليلة ؟ وكيف أن كشفاً له عن مرض فى بقرة استطاع أن يحرّك فى البشر كل هذه الآمال والأحلام ؟ وما منطق الريفيين هـذا الذى ابتدأ به إسميث فحققه وأثبته ، والذى من جرّائه استطاع أن ينير للبحاث من بعده الطريق التى يسلكونها ليحققوا بهـا أمل البشرية المنشود ، ووعدها الأكبر الخلوب الذى وعدها إياه بستور ؟

— ٢ —

فى عام ١٨٨٤ كان إسميث فى نحو الخامسـة والعشرين من عمره ، وكان نال درجة بكالوريوس فى الفلسفة من جامعة كُرنيل Cornell [1] ، وكان نال درجة دكتور فى الطب من كلية أَلبَنِى [2] Albany medical College ، ولـكنه كره أن يقضى حياته فى تشخيص أمراض يلبس لهـا وجهَ الجادّ العابس وهو يعلم أن لا رجاء فى شفائها ، وأن يُذبل زهرة أيامه فى بذل الطمأنينة والسلوى والـكلام الحلو الراجى لمرضى بنى الناس عوضاً عن بذل العلاج الناجح الذى لا يعرف له وجودا . واختصاراً تراءى له الطب والطِّبابة أنهما عمل مهوّش لا يستقيم مع العقل السليم . وأحب أن يضرب فى المجهول قليلاً ليعلم من خفاياه قدراً يستطيع حمله فلا ينوء به ظهره ، أو يُتخَم به عقله . كان طبيباً ولـكنه شاء برغم هذا أن يكون باحثاً ، ورغب بخاصة إلى دراسة المـكروب . وكان قد عُنِى وهو فى كُرنيل باللعب على الأرغون ، لَعِبَ عليـه المزاميرَ وقطعاً من بيتهوفن (ولم يكن جاء زمن الجاز باند) . وفى كرنيل فى جامعتها عبّ عبّة طيبة من الرياضيات ومن علم الفيزياء ومن اللغة الألمانية ، وبخاصة اشتد ميله إلى النظر فى المـكرسكوبات ، ولعله عندئذ نظر أول مكروبة رآها

ولـكنه لـما جاء مدرسة الطب فى أَلبَنى Albany لم يجد فى أساتذتها اهتماما بالمكروبات ، فلم يكن أطباء هذا المعهد يَسْمدون فى شفاء الأمراض إلى قتل الجراثيم . ولم يكن فى المدرسة برنامج لدراستها ، بل لم يكن فى أى مدرسة طبية بأمريكا شىء من هذا ، وأراد أن يتعلم علم الجرثوم برغم كل هذا ، وكان لا يأبه لألوان العرفان التى كانت تتعاطاها الجمهرة من طلاب الطب ، وكان يحتقر التخرّصات والأكاذيب التى يسبلون عليها رداء العلم . وأشبع هَوِيَّته ببحث أحشاء القطط بحثاً مكرسكوبياً ، ونشر أول رسالة له فى ذلك ، وفيها أبان اختلافات للطبيعة خرجت بهـا فى أعماق بطون القطط عن المألوف الذى درجت عليه فى سائر الأحياء ، وعلق عليها حواشى دلّت على الفطنة وحدة فى الذهن شديدة ، وكانت أول عمل دخل بفضله فى زمرة البحّاث

ونال درجته الجامعية ، وأراد أن يتخذ التجريب العلمى صناعته ، ولـكن تحتّم عليـه قبل ذلك وفوق ذلك أن يرتزق ليعيش . وكان فى هذا الوقت كثير من أطباء أمريكا الأحداث يتسابقون إلى أوربا ، إلى الأستاذ الـكبير كوخ Koch يودون أن تتاح لهم الفرصـة ليقفوا وراء ظهره ، ويتعلموا من فوق كتفه كيف يصنع البِشلاّت وكيف يُربيها صريحة ، وكيف يضربها بالمحاقن تحت جلود الحيوانات ، وكيف يستطيعون من بعد ذلك أن يتحدثوا عن المكروبات حديث الخبـير الضليع . ورغب إسميث أن يتبعهم ، ولـكن تحتم عليـه أن يبحث عن وظيفة ليعيش . ورحل هؤلاء الأطباء الشبان الأثرياء الى أوربا ، وبينما هم يأخذون من العلم الجديد بمبادئه الأولى ، وبينما هم يوشكون من أجل ذلك أن يقعوا على مناصب أستاذيات فى العلم هامة ، وقع إسميث على وظيفته التى طاب . وكان منصباً وضيعاً هـذا الذى ناله ؛ ومن وجهة العلم لم يكن منصباً محترما ، فقد تعين فى مكتب اصلاح الماشية والحيوان بواشنطن Washington ، ولم يكن عندئذ إلا مكتبا صغيرا حقيرا فقيرا لا يكاد يأبه له أحد . وكان فى المـكتب من المستخدمين ثلاثة غـير إسميث ، وكان على رأسهم رجل طبيب يُدْعى سلمون Salmon ، كان كثير الاهتمام بما عسى أن تصنعه الجراثيم من السوء للأبقار ، مؤمناً شـديد الايمان بخطر البشِلاّت على الخنازير ، ولـكنه جهل كل الجهل كيف يتصيد المـكروبات التى تعيث فى هذه الماشية الثمينة . وكان فى المـكتب السيد كلبورن Kilborne ، وكان يحمل درجة بكالوريوس فى الزراعة ويغتبط بها ، وكان يعرف بعض الشىء فى البيطرة ، وهو الآن يتاجر فى الصينى وما اليه بمكان قريب من نيويورك . وكان ثالثَ الثـلاثة فى المـكتب رجلٌ جسيم

(١) جامعة فى مدينـة إثاكا Ethaca فى مقاطعة نيويورك فى الشمال الشرقى من الولايات المتحدة . وقد سميت باسم أكبر متبرع لانشائها

(٢) عاصمة مقاطعة نيويورك بالولايات المتحدة

مهيب عتيق أسود كان عبداً فأُعتق ، وكان اسمه اسكندر ، وكان يجلس حيثما جلس رزينا وقورا ساكنا حتى يُحرّك ، فيقوم الى القنّينات القذرة فيغسلها ، أو الى الخنازير الغينية فيُعنى بها

وبدأ إسميث فى صيادة المكروب فى حجرة فى ذروة بيت حكومىّ أضاءها شباك واحد مفتوح فى سقف البيت . بدأ فى صيادة المكروب ، فبدأ عمله الأوفق الذى هيأته الطبيعة له . وجاءته هذه الصيادة سلسة منقادة فكأنما ولدته أمه وبيمينه محقَن وبفمه عود من البلاتين . وعلى الرغم من أنه خريج جامعة فقد كان يقرأ اللغة الألمانية قراءة جيدة ، فكان فى الليل يعتكف الى دراسة ما صنع كوخ من المكروبات وصار يعبّ من مآثره العلمية الجيدة عباً . وكان كالبُطَيطة نزلت فى الماء لأول مرة . فأخذ يفعل بالتفصيل كل مافعله كوخ من قبله ويقلده تقليداً ويتبع طرائقه اللبقة فى تربية الجرثوم واقتناص البشلات وتلك الخلائق العجيبة الأخرى التى تسبح فى الماء انفتالا كأنما هى بَرِيمة الفلين جرت فيها الحياة . قال : « إن كل ما صنعت مرجعه إلى كوخ » ، وتصور كوخَ فى بعده وعبقريته شيئاً سماويا قدسيا

وعَمِل فى حجرته السقفيّة بلا هوادة ولا حسبان لضعف جسمه ، وقام على صيادة المكروب كل يومه وطرفا من ليله . وكانت له أنامل دقيقة رقيقة متّزنة كأنامل الموسيقى فساعدته على غَسْلِ الأحسية فندر انكبابها فى يديه . وكانت الى جانب حجرته حجرة أخرى يُختزن فيها المتاع الخسيس ، وكان يخرج منها اليه قُطُر من الصراصير لا تنقطع فيتلهى فى أوقات فراغه بدقّها . وفى وقت قصير بالغ القصر علّم نفسه كل ما يتطلبه البحث ، ثم بدأ يكتشف الكشوفات على حذر ، فاكتشف لقاحا غريباً مأمونا ، لا يحتوى على البشلات نفسها ، ولكن على عصاراتها الزلالية التى تُبتزّ منها اعتصارا وترشيحا . واشتد الحر فى غرفته فزاد على حر المدينة وهى جهنم الحمراء ، ولكنه احتمل هذا ومسح العرق المتقطّر من أنفه ، وظل يعمل على أسلوب كوخ الأدقّ الأحذر ، ونبا به طبعه عن أسلوب بستور الأخشن وطرائقه الفضفاضة

(يتبع) أحمد زكى

شخصية نادرة يجهلها النفر العربى

نقد ابن أبي عتيق

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

للأستاذ خليل هنداوى

ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر عند ابن أبى عتيق فى مجلس رجل ففضل الرجل شعر الحارث . فقال ابن أبى عتيق : بعض قولك يا ابن أخى ! لشعر عمر نوطة فى القلب ، وعلوق بالنفس ، ودرك للحاجة ليست لشعر . وما عُصى الله بشعر أكثر مما عُصى بشعر عمر أشعر قريش ، من دق معناه ، ولطاف مدخله وسهل مخرجه ، ومتن حشوه ، وتلطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن حاجته . وذكر الرجل المفضل أبياتا للحارث ينعت بها الطلل :

إنى وما نحروا غداة منى ... عند الجمار يؤودها العقل
لو بدلت أعلى مساكنها ... سفلاً ، وأصبح سفلها يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها ... فيرده الأقواء والمحل
لعرفت مغنانا بما احتملت ... منى الضلوع لأهلها قبل

فقال له ابن أبى عتيق : « استر على نفسك واكتم على صاحبك ، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا ! أما تطير الحارث عليها حين قاب ربعها فجعل عاليه سافله . ما بقى إلا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارة من سجيل » فتأمل ما ألطف هذا المأخذ ، وصاحب هذه الأبيات — فى الحقيقة — قد سار إلى غاية شريفة من معناه . ولكن المبالغة أفسدت عليه غايته ؛ وإن معرفة الدار وإظهار الشوق لأهل الدار لا يحتاجان إلى قلب العالى أسفل والسافل أعلى ؛ وإن فى هذا نذيراً أدنى إلى الشؤم منه إلى إظهار الشوق . ولعن الله شوقا لا يثبت نفسه إلا على الركام والخراب !

ولقد كان يقحم شعر عمر بنقده — على رغم الصداقة — ويضربه فى الصميم . ألم يسمع عمر يقول :

بينما ينعتننى أبصرننى ... دون قيد الرمح يعدو بى الأغر

قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى : نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها : قد عرفناه ! وهل يخفى القمر ؟

وعمر في هذه الأبيات قد شغل الثلاثة به ودلههن بحبه . فقال له ابن أبي عتيق : أنت لم تتشبب بها ، وإنما تشببت بنفسك ، وإنما كان ينبغي أن تقول : قلت لها فقالت لي فوضعت خدى فوطئت عليه

وأنشد نصيب الأسود قوله :

وكدت ، ولم أخلق من الطير إن بدا
لها بارق نحو الحجاز أطير

فسمعه ابن أبي عتيق فقال له : يا ابن أم : قل « غاق » فانك تطير ، وأراد بذلك أنه لا يكون إلا غراباً أسود ، ولا يكون الغراب إلا نذيراً بالويل . وهكذا تنبه الناقد بعقله إلى شيء لم يتنبه إليه الشاعر بفنه

وأنشد ابن جندب قول العرجي لابن أبي عتيق في جاريته :

وماأنس م الاشياء لاأنس قولها لخادمها قولى اسألى لى عن الوتر
فقالت : يقول الناس في ست عشرة
فلا تعجلي منه فانك في أجر
فما ليلة عندى وإن قيل جمعة ولا ليلة الأضحى ولا ليلة الفطر
بعادلة الاثنين عندى ، وبالحرى يكون سواء منهما ليلة القدر

فقال ابن أبي عتيق — وقد راعه هذا التكلف — أشهدكم أنها حرة من مالى إن جاز ذلك أهلها . هذه والله أفقه من ابن شهاب ! وليتنا نعلم شيئاً عن ابن شهاب الذى حشره الناقد حيث لا يحشر !

وقد يتأمل ابن أبي عتيق في مواقع الألفاظ ويتبين مواضعها ، فيقول مثلاً عند ما يسمع قول قيس بن الحطيم :

بين شكول النساء خلقتها حذواً ، فلاجبلة(1) ولا قضف

لولا أن أبا يزيد قال « حذواً » ما درى الناس كيف يحشون هذا الموضع

ويسمع عتيق ابن قيس يقول : « سواء عليها ليلها ونهارها » فيقول له : كانت هذه يا ابن أم فيما أرى عمياء ، فما يستوى الليل والنهار إلا على عمياء . فقال ابن قيس : إنما عنيتُ التعب .

قال : فبيتك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه ، وما عسى يكون قدر البيت إذا كان لا يُفسر إلا بترجمان !

وأنشد كثير ابن أبي عتيق قوله :

ولست براض من خليل بنائل قليل ولا أرضى له بقليل

فقال ابن أبي عتيق : هذا كلام مكافئ ليس بعاشق ، القرشيان أقنع وأصدق منك : عمر حيث يقول :

ليت حظى كلحظة العين منها وكثير منها القليل المهنا

وحيث يقول :

فعِدى نائلاً وإن لم تنيلى إنه يقنع المحب الرجاء

وابن قيس الرقيات حيث يقول :

رُقىَّ ! بعيشكم لا تهجرينا ومنينا المنى ثم امطلينا
عدينا في غد ما شئت إنا نحب — وإن مطلت الواعدينا
فاما تنجزى عدتى وإما نعيش بما نؤمل عنك حينا

وهكذا أفسد على كثير فكرته بنظرة نفسية عميقة لأن الحب الحقيقي الذي يتلهب ويتقلب على جمر من حبه لا يقول لمحبوبته إذا عرضت له : إليك عنى فانى لا أرضى بالقليل ، وإنما يتمنى قول عمر : « ليت حظى كلحظة العين منها » ويخلق الله بعد هذه اللحظة لحظات

قال كثير لأحدهم — وكان مديوناً — إذهب بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدث عنه فذهبت إليه معه ، فاستنشده ابن أبي عتيق فأنشده قوله :

أبائنة سعدى ؟ نعم ستبين

حتى بلغ قوله :

وأخلفن ميعادى وخُن أمانتى وليس لمن خان الأمانة دين

فقال ابن أبي عتيق : ويلك هذا أملح لهن وأدعى للقلوب إليهن . سيدك ابن قيس الرقيات كان أعلم منك وأوضع للصواب موضعه فيهن . ألم تسمع قوله :

حبذاك الدل والغنج والتى في عينها دعج
والتى إن حدثت كذبت والتى في وعدها خلج
وترى في البيت صورتها مثلما في البيعة السرج
خبرونى هل على رجل عاشق في قبلة حرج ؟

(1) الجبلة الغليظة والقضف الدقيقة

وهكذا أدرك ابن أبي عتيق من نفس المرأة مالم يدركه كثير ، وأدرك أن مثل حب كثير العذرى لايستطيع أن يدخل إلى أعماق نفوس النساء لأنه حب مقتول بالاعجاب لا يرى حيث حل إلا نفسه ! ومثل عمر وابن قيس وأمثالهما ممن يقعون كل يوم على امرأة يدركون ما يعجب المرأة وما تزدريه ، ويفهمون تقلبها وقيمة وعودها ، ولكن عتيقاً أهمل هذه المرة النظر إلى البيت الأخير فى هذه القطعة حيث أخذ الشاعر يستفتى الناس فى قبلة ، وقد علم أن مثل هذه الفتوى باردة وأبرد منها هذا الاستفتاء الذى هو أدنى إلى الفضيحة والتهتك منه إلى العفة والتستر . وما على صاحبه إلا أن يردده فى أحد المساجد ويناقش فيه أصحاب الفتاوى

وأنشد أبو أذينة مرثيته لأخيه بكر :

سرى همى وهم المرء يسرى ... وغار النجم إلا قيد شبر
أراقب فى المجرة كل نجم ... تعرض فى المجرة كيف يجرى
بحزن ما أزال له مديما ... كأن القلب أسعر حر جمر
على بكر أخى ولى حميداً ... وأى العيش يحسن بعد بكر

فضحك ابن أبي عتيق وقال : كل العيش يحسن حتى الخبز والزيت . فتألم تهكمه أبا أذينة وحلف لا يكلمه أبداً . وهذا هو الموقف الوحيد الذى خرج فيه شاعر متأذيا من ابن أبي عتيق

وهناك مواقف متعددة تبدى لنا عطفه على رجال الفن ؛ فلقد كان يمتزج بهم ويحس إحساسهم

سمع عمر يقول :

كان ذا فى مسيرنا إذ حججنا ... علم الله فيـه ما قد نوينا

فقال له ابن أبي عتيق : إن ظاهر أمرك ليدل على باطنه فأورد التفسير ، ولئن مت لأموتن معك . أف للدنيا بعدك ياابن الخطاب ! فقال عمر : بل عليها بعدك العفاء يا أبا محمد !

ولقد كان فيـه حدب خاص على المحبين . وإن له مواقف كثيرة كان يقوم فيها بوصل المنقطع من حبال المودة كما فعل مع عمر ، وكان رسوله إلى الثريا . وكما فعل مع نصيب ، وقد توسط بينه وبين سعدى محبوبته : ولعل هذا الموقف يبدى لك غيرة ابن أبي عتيق على رجال الشعر والغناء والعمل على نصرهم . وهذا الموقف يبديه لنا رجلاً قوياً حاد الطبع قوى الشكيمة مفتول العضل .

رأى ابن أبي عتيق حلق ابن عائشة مخدشاً فقال : من فعل بك هذا ؟ قال فلان . فمضى فنزع ثيابه وجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتلبيبه وجعل يضربه ضرباً شديداً والرجل يقول له : مالك تضربنى ؟ أى شىء صنعت ؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ثم خلاه وأقبل على من حضر فقال : هذا أراد أن يكسر مزامير داود ! شد على ابن عائشة فخنقه وخدش حلقه

والآن أرجو أننى وفقت فى الكشف عن شخصية جديدة فى تاريخ النقد العربى ، وأرجو زملائى كتاب (الرسالة) أن يعملوا على جمع شوارد هذا الرجل ، وأرجو أن تتولى (الرسالة) نشر ما يأتيها عنه وما تقع عليه . فربما استطعنا أن نؤلف من هذه الشوارد حياة الرجل وحياة الناقد ، لأن لنقده تأثيراً أكبر مما ذكرنا فى توجيه أدب عصره . وإنما أدبنا لايزال فقيراً إلى رجلين : المؤرخ والأديب . فليعمل المؤرخ عمله يعمل الأديب عمله أيضاً

(دير الزور) **خليل هنداوى**

الكلب والديك

فى كتاب «الحيوان» للجاحظ

بقلم محمد طه الحاجرى

يعرف كل قراء الجاحظ تلك الخصومة الحادة العنيفة التى أثارها أبو عثمان، فى أول كتابه الحيوان، بين الكلب والديك، وتلك المناظرة الطويلة المسترسلة المفتنة شتى الأفانين، والذاهبة فى شتى مذاهب الكلام بين صاحب هذا وصاحب ذاك؛ دون أن يكون بينهما — فى حقيقة الأمر — خصومة، أو سبب يدعو إلى المناظرة، وإنما هى عبقرية الجاحظ التى لا تفتأ تبدع وتبتكر، وأسلوبه المتدفق الذى لا يألو يشقق الكلام ويولد المعانى والصور. ذلك هو الظن السائد الذى نلجأ إليه كثيراً فى تفسير مثل تلك المناظرة الغريبة. ولكنى أحسب أن الأمر بين الكلب والديك أعجب من أن يكتفى فى تفسيره بتلك الصفة الغالبة، والنظرة العاجلة المقاربة

فلقد أطنب الجاحظ فى تلك المفاضلة إطناباً غريباً، حتى كسر عليها جزءين كبيرين من كتابه، لعلهما يقربان من ثلثه؛ ثم كأنه لم يكتف بذلك، فترى حديث صاحب الكلب وحديث مناظره صاحب الديك يتخللان الأجزاء الأخرى

ثم إن هذه المفاضلة غريبة أيضاً فى كتاب الحيوان، فقد سار الجاحظ فى أبواب الكتاب التى تلى ذلك الباب على منهج غير ذلك المنهج، فليس إلا وصف الحيوان، وبيان عاداته وطبائعه، ومزاياه ومساوئه، ورواية النوادر عنه، والآثار الأدبية التى تدور حوله، وحكاية كلام بعض علماء الحيوان والمعنيين بأمره، مثل أرسطاطاليس وأقليدون، دون أن يعرض للمفاضلة بين هذا الحيوان وذاك، إلا قليلاً لا نكاد نلحظه. فالأمر بين الكلب والديك إذن ليس متمشياً مع طريقة الجاحظ فى الكتاب عامة، فما الذى جعله يميزه من غيره، ويسلك فيه أسلوبا على حدة

وأخرى لا سبيل إلى الاغضاء عنها، وهى وجه اختيار هذين الحيوانين بالذات ليكونا موضعاً للمقارنة والموازنة والمفاضلة وما من سبب، فيما يبدو، يجمع بينهما، أو يدع سبيلاً للتنظير والتفضيل. ولعل السبيل بين الضب والنون أو بين الملاح والحادى كما يقول البلاغيون أكثر استقامة مما هو بين الكلب والديك. ولو أن الجاحظ يريد المقارنة وحدها، والمقابلة بين خلقيهما، لكان ذلك مستساغا؛ أما أن يجعلهما خصيمين، وينصب لكل منهما صاحباً يهاجم باسمه، ويدافع عنه، ويناضل دونه، دون أن يكون بينهما جامعة طبيعية إلا جامعة الحيوانية، فأمر لا نستطيع أن نصفه إلا بالغرابة. فهلا ناظر بين الفيل والبعير، أو بين الثعلب والذيب!!

ورابعة تلفت نظرنا، وتثير دهشتنا، وهى ما أشار إليه فى أول كلامه من أن هذه المناظرة كانت تدور بين شيخين من علية المتكلمين، ومن الجلة المتقدمين، فما للمتكلمين ولهذا؟ وما شأن الكلب والديك فى الكلام على الصفات والقدر، أو المناظرة بين النار والمدر؟! لسنا ننكر أن من أول ما كان يعنى به المتكلمون، وخاصة المعتزلة، بيان دقائق صنع الله فى الكون، وحكمة الله فى الخلق، على نحو ما فى رسالة «الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير» لأمامنا الجاحظ. فهل نستطيع أن نفهم أن تلك المناظرة إنما كانت تأخذ هذه السبيل وتتجه إلى تلك الغاية؟ إن من العسير أن نقنع أنفسنا بهذا فى مثل ذلك الذى صوره الجاحظ بين الكلب والديك. وإذا أجزنا ذلك بوجه من الوجوه فانا نتساءل مرة أخرى: ما بالهم لم يختاروا من جميع الحيوان موضوعا لهذه المناظرة إلا ذينك الحيوانين — على ما فى المفاضلة بينهما — فاقتصروا عليهما، ولم يعدوهما؟

فالمسألة كما يرى القارئ الكريم غامضة، لا يكفى فى بيانها ذلك التفسير العام المبهم الذى يفسر به أسلوب الجاحظ جملة واحدة

* * *

إن ذهناً دقيقاً كذهن الجاحظ مارس الفلسفة وأساليب المتكلمين، حتى صار رأساً لطائفة من المعتزلة تدعى باسمه، ليس من القريب احتماله أن يأخذ فى الكلام اعتباطاً، فيناظر بين الكلب والديك وليس بينهما وشيجة أو سبب. فاذا كنا لا نرى بينهما صلة ذاتية، فلابد أن تكون بينهما صلة أخرى خارجية، هى التى مهدت السبيل للمناظرة، فما هى هذه الصلة وأين نلتمسها؟ هل هناك صفات أضيفت إلى الكلب تقابل صفات أخرى

ليست فيها أسماء بنت عميس : « قال على المنبر رأيت فى المنام كأن ديكا نقرنى ثلاث نقرات فقلت أعجمى يقتلنى » ثم إنه مهما تكن قيمة هذه الرواية فان تأويل الديك بالأعجمى يدل وحده دلالة صريحة على ما ذكرنا . ويضاف إلى هذا ما حكاه ابن سيرين من أنهم كانوا يؤولون الكلب الأسود بالعربى . وإذن فقد تم الأمر من وجهيه ، وتضافرت الدلائل على أن ذلك الغرض الذى افترضناه قريب لا تكلف فيه ولا تعسف

***

على أن هـذا الغرض — فوق تفسيره لموقف الجاحظ — يفسر لنا طائفة من الأحاديث الموضوعة ، لم نفهم من قبل السر فى وضعها ، والعناية بصنعها ، فنحن نعرف كيف كانت الطوائف المختلفة تجتهد فى وضع الأحاديث ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتأييد مذاهبها ، ونشر الدعاية لمبادئها ؛ ومثل هذه الأحاديث نستطيع فى غير عنت أن ندرك السر فى وضعها . أما تلك المجموعة من الأحاديث التى نحن بصددها فيبدو فى بادىء الرأى أن وضعها كان عبثا ولهواً وسخرية ، وإلا فما ظنك بهذه الأحاديث التى وضعت عن الديك ، ووضعته فى صف الملائكة المقربين . كذلك الحديث الذى ذكره صاحب التهذيب ، فى ترجمة البزى — وقد قال عنه إنه ضعيف الحديث — وهو : « الديك الأبيض حبيبى وحبيب حبيبى جبريل ، يحرس بيته وستة عشر بيتاً من جيرانه » أو ذلك الحديث الآخر : « ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت قارىء القرآن وصوت المستغفرين بالاسحار » . أو ذلك الحديث الثالث الذى يعتبر بدعة فنية خليقة بالخيال الفارسى المترف ، وقد رواه الطبرانى فى معجمه : « إن لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحاه مُوَشّيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ : جناح بالشرق وجناح بالمغرب ، ورأسه تحت العرش وقوائمه فى الهواء ، يؤذن فى كل سحر ، فيسمع تلك الصيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين الانس والجن ، فعند ذلك تجيبه ديوك الأرض ، فاذا دنا يوم القيامة يقول الله تعالى ضم جناحيك وغض صوتك ، فيعلم أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين أن الساعة قد اقتربت » ومثل ذلك كثير مذكور فى الكتب

أفى الحق أن كل ذلك كان عبث عابث ولهو لاه ساخر ؟ أكل ذلك العناء فى وضع تلك الأحاديث ، والتكلف لها وتلفيق أسانيدها ، وذلك الجهد الذى لا نشك فى أنه كان عظيما من أجل إمرارها وإدماجها بين الأحاديث الصحيحة ، أكل أولئك كان لهواً ولعباً لا غاية له ولا هدف يتجه نحوه ؟ ؟

كلا ! وإنما هى الشعوبية التى أسرفت فى وضع الأحاديث عن فارس وسلمان الفارسى وغير ذلك ، هى هى التى أوحت بتلك الأحاديث الغريبة فى تمجيد الديك وتقديسه ، باعتباره رمزاً فارسياً (١)

وإذن فقد استطاع ذلك الفرض أن يكشف لنا عن السر فى وضع تلك الأحاديث الغريبة ، وأن يبين لنا لوناً من ألوان ذلك النزاع بين النزعة العربية والنزعة الشعوبية

محمد طه الحاجرى

(١) ومما يناسب ذكره هذا المقام من كلام الجاحظ قوله — عقب ذكره بعض أحاديث القوم عن أبرويز والفيل (ج ٧ . ص ٥٦ من كتاب الحيوان) — : « واعلم أن هذه الأحاديث من أحاديث الفرس وهم أصحاب تنفج وتزيد ، ولا سيما فى كل شىء مما فى باب العصبية »

٤ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

خطب زرادشت

التحول فى ثلاث مراحل

سأشرح لكم تحوّل العقل فى مراحله الثلاث فأنبئكم كيف استحال العقل جملاً ، وكيف استحال الجمل أسداً ، وكيف استحال الأسد أخيراً فصار ولداً.

إنها لعديدة تلك الأحمال التى تثقل العقل الجَلْد الصليب الذى يتجلى الوقار فيه ، فأن صلابته تتوق إلى الحمل الثقيل بل إلى الحمل الأثقل

يفتّش العقل السليم عن أثقل الأحمال فيُنيخ كالجمل ظهره متوقعاً رفع خير حمل إليه . إن العقل السليم ينادى الأبطال قائلاً : أىّ حمل هو الأثقل لأرفعه فتغتبط به قوتى ؟ أفليس أثقل الأحمال هو فى الاتضاع لانزال العذاب بالغرور ؟ أفليس أثقلها أن يبدى الانسان اختلالاً لتَظهر حكمتُه جنوناً ؟

أم أثقلها فى تخلّى الانسان عن مطلب حين يقترن هـذا المطلب بالنصر ، أم فى ارتقاء قمم الجبال لتحدّى من يتحدّى ؟

أم أثقلها فى أن يتغذّى الانسان بأقماع السنديان والأعشاب ويتحمّل مجاعة نفسه من أجل الحقيقة

أم أثقلها فى احتمال المرض وطرد العائدين المعزّين ، أم فى مخادنة الصمّ الذين لا يسمعون ولا يعون ما تريد ؟

أم أثقلها فى الانحدار إلى المياه القذرة إذا كانت الحقيقة فيها والرضى بملامسة الضفادع اللزجة والعقارب التى تقطر صديداً

أم أثقلها فى محبة من يحتقرنا وفى مدّ يدنا لمصافحة شبح يقصد إدخال الرعب إلى قلوبنا . إن العقل السليم يحمل ذاته جميع هذه الأثقال المرهقة ، وكالجمل الذى يسارع إلى طريق الصحراء عندما يرفع الوِقرَ عن ظهره لينندفع هو أيضاً نحو صحرائه

وهنالك فى الصحراء القاحلة يتمّ التحوّل الثانى إذ ينقلب العقل أسداً لأنه يطمح إلى نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه

وفى هذه الصحراء يفتش عن سيده ليناصبه العداء كما ناصب سيده السابق ، فهو يستعد لمكافحة التنّين والتغلب عليه

ومن هو هذا التنّين الذى يتمرد العقل عليه فلا يريد بعد الآن أن يرى فيه ربه وسيده ؟

إن التنين هو كلمة « يجب عليك » وعقـل الأسد يريد أن ينطق بكلمة « أُريد »

« إن كلمة (الواجب) تترصد الأسـد على الطريق تنّيناً يدّرع بآلاف الأصداف وعلى كل قطعـة منها تتوهج بأحرف مذهبة كلمة « يجب عليك »

وعلى هذه الأصـداف تشع سنو ألف عام والتنّين الأعظم يعج قائلاً إن جميع السنين تتوهج علىّ

كل ما هو سنّةٌ قد أُوجد من قبل ، وبى تتمثل جميع السنن الكائنة . والحق أن كلمة « أُريد » يجب ألا ينطق بها أحدٌ بعد ! هكذا قال التنّين

فأية حاجةٍ لكم أيها الأخوة بأسد العقل ؟ أفما يكفيكم الحيوان القوى الجليل الممتّع بامتناعه ؟

من العبث أن تطمحوا إلى خلق سنين جديدة ، إن الأسد نفسه ليعجز عن هـذا الخلق إذ لا يسعه إلا أن يستعد بتحرير نفسه لخلق جديد لأن قوته لن تتجاوز هذا الحد

أيها الأخوة ، إنّ العمل الذى تحتاجون فيه الى الأسد إنما هو تحرير أنفسكم والوقوف ببطولة الامتناع فى وجه كل شىء حتى وجه الواجب . ذلك أيها الاخوة هو العمل الذى تحتاجون الى الأسد للقيام به

إن الاستيلاء على حق إيجاد سـنن جديدة يقضى بالجهاد المنيف على العقل الخشوع الصبور ، ولا ريب أن فى هذا الجهاد قسوة لا يتصف بها إلا الحيوانات المفترسة

لقـد كان العقل فيما مضى يتعشق كلمة « الواجب » كأنها أقدس حق له ، وقد أصبح عليـه الآن أن ينظر حتى الى هذا

الحق المفدّى فيراه توهماً واعتسافاً ، ليتمكن بارهاق عشقه أن يستولى على حرّيته وليس غير الأسد من يقوم بهذا الجهاد

ولكن ما هو العمل الذى يقدر عليه الطفل بعد أن عجز الأسد عنه ؟ ولماذا يجب أن يتحوّل الأسد المكتسح الى طفل ؟

ذلك لأن الطفل طهرٌ ونسيانٌ ، لأنه تجديد ولعب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية وعقيدةٌ مقدّسة

أجل أيها الاخوة إن العمل الالّهىّ للأبداع يستلزم عقيدة مقدسة ، فأن العقل يطلب الآن إرادته ، ومن فقد الدنيا يريد الآن أن يجد دنياه

لقد ذكرت لكم تحولات العقل الثلاثة فأوضحت كيف استحال العقل جملاً وكيف استحال أسداً وكيف استحال أخيراً الى طفل

هكذا قال زارا ، وكان فى ذلك الحين مقيماً فى مدينة اسمها البقرة المديدة الألوان

منابر الفضيلة

وبلغ زارا خبر حكيم أطنب الناس فى علمه ومقدرته فى التكلم عن الكرى وعن الفضيلة فخبوه بالتكريم والتبجيل واتبعه عدد من الشبان أصبحوا دعامة لمنبره العالى ، فذهب زارا وجلس معهم أمام المنبر مصغياً إلى الحكيم فكان يقول :

مجدوا الكرى وعظموه لأن له المقام الأول وتحاشوا مرافقة من ساء رقادهم ومن استحوذ عليهم الأرق

إن اللص ليقف خاشعاً أمام الكرى فيدلج فى الليل مخرساً وقع أقدامه ولكن الساهر المجازف لا يتورع عن حمل بوقه

ليس بالسهل أن يعرف الانسان كيف يستسلم لسنة الكرى وليس إلا لمن عرف كيف ينتبه طول النهار أن ينام ملء جفنيه

يجب عليك أن تقاوم نفسك عشر مرات فى النهار فتغنم خير التعب وتهيء المخدر لروحك

عليك أن تصالح نفسك عشر مرات فى النهار لأنه إذا كان فى قهر النفس مرارة فأن فى بقاء الشقاق بينك وبينها مايزعج رقادك

عليك أن تجد عشر حقائق فى يومك كيلا تضطر إلى السعى وراءها فى نومك فتبقى نفسك جائعة

عليك أن تضحك عشر مرات فى يومك لتكون مرحاً كيلا تزعجك معدتك فى ليلك والمعدة بيت الداء

قليل من يعرف هذا من الناس ؛ ولن يتمتع بالرقاد الهنيء إلا من حاز جميع الفضائل . فاذا ما المرء أدى شهادة زور أو تلطخ بالزنا وإذا هو اشتهى خادمة قريبة فقد حرم وسائل الهناء فى نومه

غير أن المرء يحتاج فوق فضائله إلى شيء آخر وهو أن يدفع إلى الرقاد بفضائله نفسها فى الزمن المناسب

إن من الفضائل من هى كالغانيات المتجنيات ، فأقم بينهن حائلاً كيلا ينتهين إلى عراك تكون أنت ضحيته

ليكن سلام بينك وبين ربك وبين الأقربين ، فلا نوم هنيء بدون هذا السلام . وسالم شيطان جارك أيضاً لئلا يراودك فى رقادك

أكرم السلطة واخضع لها حتى ولو كانت هذا السلطة عرجاء . إن ذلك ما يقتضيه النوم الهنيء

وما أنا بالجانى إذا كان يحلو للسلطة أن تسير متعارجة

إن خير الرعاة من يقود قطيعه إلى المروج الخضراء ذلك ما يقتضيه الرقاد الهنيء »

لا أطلب كثيراً من المجد ولا وفيراً من المال وكلاهما يؤدى إلى الاضطراب ، ولكنّ المرء لا ينام هنيئاً ما لم يكن له شىء من الشهرة ولديه شىء من المال

أفضّل أن يزورنى القليل من الناس على أن يرتاد مسكنى عشراء السوء ، وهذا العدد القليل يجب عليه ألاّ يطيل السمَر عندى لئلا يعكّر صفو رقادى

تسرنى مجالسة البلهاء لأنهم يجلبون النعاس ؛ ولشدّ ما يغتبطون عندما نحبذّ حماقاتهم ونشهد باصابتهم

على هذه الوتيرة يقضى فضلاء الناس نهارهم . أما أنا فاننى إذا ما أمسى المساء أحترس من أن أراود النعاس لأنه سيد الفضائل ولا يرتاح إلى تحرّش الساهرين

وتحت جنح الظلام أستعرض ما فكّرت فيه وما فعلته فى يومى فأنطوى على نفسى كالحيوان الصبور وأسائلها عما قهرت به أميالها عشر مرات وعما عقدت به الصلح مع ذاتها عشر مرات ،

وعن الحقائق العشر والمسرّات العشر التى أُفعمت بها

وبينما أكون مستغرقاً تهزنى الأربعون خاطرة يستولى النعاس على فجأة ، وهكذا يسودنى الكرى سيد الفضائل دون أن أتوجه بدعوة إليه

يثقل النعاس جفنىّ فتغمضان ، ويلمس فى فيبقى مفتوحاً

إنه يدلف إلىّ كلص محبوب فيسرق أفكارى وأبقى أنا منتصباً كعمود من خشب ، ثم لا تمر لحظات حتى أنطرح ممدداً على فراشى

وبعد أن أصغى زارا إلى هـذه الأقوال يقرع الحكيم بها الأسماع تملك ضحكه وأشرق نور فى جوانب نفسه فناجاها قائلاً :

يتراآى لى أن هذا الحكيم قد جُنّ بخواطره الأربعـين .

ولكنه جد خبير بحالات الكرى . فما أسعد من يجاور هذا الحكيم ! لأن مثل هذا النعاس شديد الانتقال بالعدوى حتى الى وراء الجدران

إن شيئاً من السحر يفوح من منبره العالى ، وما يجتمع هذا العدد من الشبان عبثا حول خطيب الفضائل

إن قاعدة هذا الحكيم إنما هى — اسهروا لتناموا — وفى الحقيقة لو لم يكن للحياة معناها فوجب أن اختار لهـا حكمة لامعنى لها لمـا كنت أجد أفضل من هذه القاعدة

لقد أدركت الآن ما كان يطلب الناس قبل كل شىء عندما كانوا يفتشون على أوليات الفضائل ؛ إنهم كانوا يطلبون النوم الهنىء والفضائل التى يتجلىّ على مفرقها تاج المخدرات . وما كانت الحكمة فى عرف حكماء المنابر ، وقد نالوا الاعجاب والثناء إلا قاعدة النوم لا تقلقه الأحـلام . إنهم لم يكتشفوا معنى أفضل من هذا المعنى للحياة

وكم فى أيامنا هذه من أناس يشبهون هذا الواعظ فى دعوته الى الفضيلة غير أنهم أقلّ إخلاصاً منه . ولكن هذا الزمان لم يعد زمانهم ولن يطول وقوفهم والكرى يراود أفكارهم فهم عن قريب سيُمددون

طوبى لمن دبّ الى عيونهم النعاس ! إنهم عما قريب سيرقدون

هكذا تكلم زارا

(يتبع) فليكس فارس

بين أحضان الطبيعة

للشاعر السويسرى جوتفريد كلر

أيتها الطبيعة المشرقة . أنشرى فوق رداءك الأخضر الجميل

وغنى حولى بحفيف أشجارك الباسقة الناضرة

وأيقظينى عند تباشير السحر المشرق ، وفى بسمة الفجر المنير

لقد تعبت روحى فذهبت ترفرف عليك حيرى واجفة

ونعست عينى أمام تلك العظمة وهذا الجلال !

فدعينى أحلم بلياليك الزاهرة

* * *

إن وجهك كوجه الطفل فى مهده

وأنت تتناجين بحفيف أزهارك التى بللت وجناتها دموع الحزن وجرت على خدّها عبرات الأسى

ولكنها ما تلبثُ أن تستردّ نضارتها وبشاشتها من جمالك السحرىّ

إن قلبى مُفعمٌ بالآلام والأشجان ، ولكنها تتلاشى بين أحضانك الزاهرة ، وتذوب فى أجوائك الساحرة ، فأعود كالطفل الطروب

* * *

أيتها الطبيعة : أيتها الصديقة التى وهبتنى إخلاصها الأبدى وشبابها الدائم الذى أحيا فى قلبى ميت الأمل وضائع المنى

أنت قبلتى التى أؤمها ، وكنفى الذى أستظل به

فاذا جاء يوم نسيتُ فيه وفاءكِ ، ولم أوفِّك حقك من الاخلاص فاعلمى أنى هبطت إلى الدرك الأدنى وأصبحت هائماً ذاهلاً . واعلمى أن قلبى قد أدمته الجراح فنسى كل شىء

* * *

أيتها الطبيعة المشرقة ! قفى بجانبى فى معترك الحياة الزاخر وظلليني بحنانكِ ، واشمليني بعنايتـك ، وارقبيني بنظرات الأمومة الحانية . وإذا دنت ساعتى وحانت منيتى فانشرى فوق رداءك الأخضر الجميل

ما أبهج الحياة والموت فى أوديتك الساكنة !

أحمد فتحى مرسى

٦ – تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن حبشى

الفصل الأول

وهكذا نجد بين التبابعة ملكة سبأ التى ذكرت مخاطراتها مع سليمان فى السورة السابعة والعشرين من القرآن ، وبالرغم من أن محمداً (ص) نفسه لم يشر إلى اسمها أو نسبها فان المفسرين اعتبروها بلقيس ابنة شراحيل (أو شرحبيل)

أما البطل الوطنى الذى ورد ذكره فى أسطورة عرب الجنوب فهو « تبع أسعد كامل » أو كما يسمى أحياناً « أبو كرب » الذى مازالت ذكراه حتى اليوم — كما يقول فون كريمر — حية باقية ، ومازالت روحه تكثر من الترداد على خرائب قصره فى ظفار « وما من أحد يطالع قصيدة مخاطراته أو النصائح التى وجهها إلى ابنه حسان وهو مسجى على فراش الموت إلا اعتقد مضطرا أنه أمام شعر قصصى أصيل مستمد من الخرافات العربية الجنوبية التى ترجع أوليتها دون شك إلى عصر قديم جداً [1] » وهأنذا أقدم للقارئ بعضاً من القصيدة التى يمكن تسميتها بقصيدة « الساحرات الثلاث [2] »

الدهر يأتيك بالعجائب والأيا … م والدهر فيـــه معتبر
بينا ترى الشمل فيـه مجتمعا … فرقه فى صروفه القدر

(١) ص ٧ من مقدمة فون كريمر لكتابه Die Südorabische Sage

(٢) وقد ترجمها نثراً فون كريمر فى كتابه السابق (ص ٧٨ وما يليها) أما النص العربى الذى طبعه بعد ذلك فى Altarabis che Gedichte ueber die Volkssage von Jemen, p. 18 فكثير الخطأ فى بعض المواضع ، وقد اتبعت ترجمته إلا حينما ألمس الخطأ الجسيم الفاحش ، وليس من الصعب على القارئ أن يعتقد أن القصد من هذه القصيدة أن يلقيها السامر الجوال على أسماع السمار ليلا ، وربما كانت من وضع أحد هؤلاء القصاصين المحترفين الذين كثر وجودهم فى القرن الأول للهجرة كعبيد بن شرية أو يزيد بن ربيعة ابن مفرغ (٦٨٨ م) الذى يقال إنه وضع القصائد والقصص المنسوبة لملوك حمير (الأغانى ج ٧ ص ٥٢)

لاينفع المرء فيـه حيلته … فيما سيلقاه لا ولا الحذر
إنى زعيم بقصـة (عجب) … عندى لمن يستزيدها الخبر

* * *

يكون فى الأسـد مرة رجل … تم له فى ملوكه الخطر
مولده فى قرى ظاهر هم … دان بتلك التى اسمها خمر
يقهر أصحابه على حدث الـ … ـن ويحقرهم فيحتقر
حتى إذا مكنته صولتـه … وليس يدرى ما شأنه البشر
أصبح فى هيوم [1] على وجل … وأهـله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عنـدهم … أزرى لديهم بجهـله الصغر
لا يفقـــدوه لا در درهم … لو علموا العـلم فيه لافتخروا
حتى إذا أدركته روعته … بين ثلاث وثلاثة (!) حجروا
جاءت إليه الكبرى بأسـقية … شـتى وفى بعضها دم كدر
فقال هاتى إلىّ أشربها … قالت له : ذر فقال لا أذر
فناولته فما تورّع عن … أقصاه حتى أماده السكر
فنهنهته الوســـطى فنازلها … كأنه الليث هاجـه الذعر
قالت له هــــذه مراكبنا … فاركب فشر المركب الحمر
فقال « حقاً صدقت » ثم سما … فوق ضبيع قد زانه الضمر
فدق منـه جنباً فغادره … فيه جراح منها به أثر
ثم أتته الصـغرى تمرّضه … فوق الحشايا ودمعـه دِرَرُ
فخال عنها بمضجع ضجر … ولا تساوى الوطاء والزعر
كان إذ ذاك بعـد صرعته … من شدة الجهل [2] تحته الابر
قلن له لما رأين جرأته … أَسَعْدُ أنت الذى لك الظفر
فى كل ما وجهة يوجههـا … وأنت يشفى بحربك البشر
وأنت للسيف والسـنان وفى … الأبدان تبدو كأنهـا الشمر
وإنّ أنت المهريق كلّ دم … إذا ترامى (بشخصك) السفر

(١) قرأها نيكلسون هنوم ، وقرأها فون كريمر « أهنوم » بدلا من هيوم ، ولكن انظر كتاب جزيرة العرب للهمدانى ص ١٩٣ السطر الأخير

(٢) هكذا فى نسخة فون كريمر فقال فى ترجمته :

Under lag so nach seinem Sturze
Aus grosser Unwissenheit, als wöre or auf Nadeln gaeltitet

أما نيكلسون فقد قرأها « الجهد » بدلا من « الجهل » فقال :

And himthought, in anguish Lying there,
That needles underneath him were

(المترجم)

فارشد ولا تستكن فى (حمر) ورد ظفارا فأنها الظفر
فلست تلتذ عيشة أبداً وللأعادى عين ولا أثر
نحن من الجن يا أبا كرب يا تبعَّ الخير هاجنا (الدعر)
فما بلوناه فيك من تلف عن عمد عين وأنت مصطبر
ثم أتى أهله فأخبرهم بكل ما قد رأى فما اعتبروا
فسارعتهم من بعد تاسعة إلى ظفار وشأنه (الفكر)
تحلّ فيها والدهر يرفعه فى عظم شأن وهو يشتمر [1]
إنا وجدنا هذا يكون مماً فى عامنا والمليك مقتدر
فالحمد لله والبقاء له كل إلى ذى الجلال مفتقر

وتجعل هذه القصيدة أسعد بطل حملة عظيمة إلى فارس حيث نازل القائد الذى أرسله اليه أحد ملوك العراق وقهره ثم انطلق إلى بحر قزوين ، وفى طريق عودته اخترق الحجاز وإذ ذاك علم أن ابنه الذى خلّفه فى المدينة قد قتل غيلة ، فأقسم أن يكون ثأره من أهل تلك البلدة شديداً « وبينما كان تبع منهمكا فى إعداد الغارة عليهم ، وفد عليه حبران يهوديان من قريظة يتفجّر العلم منهما ، فلما علما بعزمه قالا له : « أيها الملك لا تفعل فأنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة » فقال لهما : « ولم ذلك ؟ » فقالا : « هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان تكون داره وقراره » فتناهى عن ذلك ، ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما [2] » ... وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجّه إلى مكة وهى فى طريقه إلى اليمن ، ثم أتاه نفر من هذيل قالوا له : « أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ » قال : « بلى » فقالوا : « أرسل إلى الحبرين » فأرسل اليهما وأخبرهما بما حدثه به الهذليون فقالا له : « ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتاً لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليه لتهلكنّ وليهلكنّ من معك » فسألهما ما يصنع إذا قدم عليه فأشارا عليه بأن يصنع مايصنع أهله « تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له » فقال : « فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ ... » قالا : « أما والله إنه لبيت ابراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله وبالدماء التى يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك » فامتثل أمرهما وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل [1] ثم لما دنا تبع من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا « لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا » فدعاهم إلى دينه ، وقال : « إنه خير من دينكم » فقالوا : « فحاكمنا إلى النار » قال : « نعم »

وكان باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تنفر تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرج قوم بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلديها حتى قعدا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما فأصبحت عند ذلك حمير على دينه . فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن [2]

(يتبع)

---

(١) حذف الأستاذ نيكلسون من ترجمته بعد هذا البيت سبعة أبيات تتضمن قصة امرأة جاءت تشكو ظلامتها فانتصر لها ، وإتماماً للفائدة الأدبية نذكر هذه الأبيات :

حتى أتته من المدينة تشكو الظلم شمطاء قومها غدروا
(أدت) إليه منهم ظلامتها ترجو به ثارها وتنتصر
فأهل الرأى فى الذى طلبت (فكان) كل بذاك يأتمر
فعبأ الجيش ثم سار به مثل الدبا فى البلاد ينتشر
قد ملأ الخافقين عسكره كأنه الليل حين يعتكر
تعم أعداءه كتائبه وليس يبقى فيهم ولا يذر
حتى مضى منهم لثانية وفاز بالنصر ثم ينتصر
(المترجم)

(٢) ابن هشام ص ١٣ س ١٤ وما يليه

(١) ابن هشام ص ١٥ س ١ وما يليه
(٢) ابن هشام ص ١٧ س س ٢ وما يليه

من الأدب الإنكليزي

مرثية جراي

[تعد هذه المرثية من أبلغ المراثي في الشعر الانكليزي ، قرأها على صديقي الأستاذ حيدر الركابي فنقلتها إلى العربية كما فهمتها] « على »

للأستاذ على الطنطاوي

قُرع الناقوس ينعى النهار الآفِل ، وراح القطيعُ يزحف ببطء يتسلق الهضبة راجعاً الى القرية ؛ وعاد الفلاح الى البيت يجر رجله تعباً ... وبقى العالم لى وللظلام !

***

تدثّر الكون بالسواد ، وتوارى عن الأنظار ، وسكنت الدنيا سكوناً مهيباً ، ولم يبق فى الجو نأمة تسمع ، إلا هذه الأصوات العميقة تفيض بها الأودية البعيدة والشعاب النائية ، وإلا طنين حشرة تطير ، ونعيبُ بومٍ على تلك الدوحة ، يشكو ظلم الناس وعدوانهم على وكره الآمن

***

هنالك ... عندَ تيك الشجرات القديمات ، تحت تلك الرِّجام التى يزدحم عليها العشب ، ويَتكوّمُ الكلأ(١) ... كان « أجداد القرية » ينامون إلى الأبد فى حفرهم الضيِّقة ، وأجداثهم العميقة

***

لا يوقظهم نسيم الصباح الأرج ، ولا تغريد البلبل الطَّرب ولا زقاء الديك المزهو ، ولا زّمارة الراعى السعيد ... كل ذلك لم يعد يوقظهم من رقدتهم

***

لا . ولن توقد من أجلهم نيران المدافئ ، ولن تقوم فى خدمتهم ربات المنازل ، ولن يهتف أطفالهم اللُّثغ فرحين بمقدمهم ، ولن يَتسلَّقوا ركبهم يستبقون إلى أحلى تمنيةٍ لهم قبلةٍ من آبائهم عند عودتهم إلى منازلهم وأهليهم

***

(١) تكوم الكومة ، وتكومت من العامى الفصيح

كم كان المنجل العضب يخضع لسواعدهم ، وكم كانت الأرض الصَّلدة تشقق تحت معاولهم ، والغابة القاسية كم لانت لضرباتهم

***

كان عملهم مفيداً ، وحياتهم مجدية ، فلا يسخر الطموح من مسراتهم الهينة ، وحياتهم المجهولة ، ولا تستمع العظمة هازئة حديث الفقر ، وقصته الساذجة القصيرة

***

فان فخر القواد ، وعظمة الأقوياء ، وكل ما تمنحه الثروة ، ويأتى به الجمال ... كل ذلك ينتظر الساعة التى لا مفر منها ، والغاية التى لا محيد عنها ، لا فرق فى ذلك بين عظيم وحقير ، لأن طريق المجد لا ينتهى إلا إلى القبرْ !

***

فيأيها المغترون ، لا تلوموا هؤلاء المساكين إن خلت قبورهم من نُصُب المجد ، وتماثيل العظمة ، على حين تتصاعد ألحان الثناء وأغانى المديح ، من بين جدران المدافن الفخمة ، وتحت أقبيتها المزخرفة

***

لأن البَخُور المحروق ، والتمثال المنحوت ، لا يرد الروح على الميت الراقد ، وهُتاف الناس ، وعجيج الجماهير ، لا ينفخ الحياة فى التراب الجامد ، وهمس التملق ، وهجس التزلف ، لا يبلغ سمع الموت البارد !

***

ومن يدرى ؟ فلعلّ فى بطن هذه البقعة المهجورة قلباً كان يمكن أن يفيض منه النور السماوى ، ويداً كانت تدير دفّة المركب السياسى ، وأصابع كان يمكن أن تمشى على أوتار القيثارة الخالدة فتنشئ النغم السحرى . . . لولا أن العلم لم يفتح أمامها صفحاته الحافلة بثمرات الزمان !

***

أخمد النسيان جذوة أرواحهم النبيلة ، وأجمد نهر حياتهم الجارية ، وطغا عليهم لج الزمان ... ولكن . كم فى جوف البحر من جواهر مخبوءة ، ولآلئ مجهولة ، وكم فى عرض البادية من وردة تفتحت واحمرت ، فلم يرها أحد ، فضاع أريجها العطر فى رياح الصحراء

***

ومن يدرى ؟ فلعل هنا بطلاً (كهامْبِتِن) كان حاكماً فى حقوله مطلقاً ، وكان جباراً شجاعاً ، ولعل هنا (ملتون) آخر ، ولـكنه صامت مغمور ، ولعل هنا (كرمْوِل) ، ولـكنه كرمْوِل برئ من دم أبناء الوطن !

* * *

منعهم القدر من الاستمتاع بهتاف الجماهير ، وتصفيق البرلمانات ، ومنعهم من المغامرة ، وركوب الأهوال ، وازدراء المصاعب ، واحتقار العقبات ، ومنعهم من نثر الخيرات على بلادهم ، وقراءة تاريخهم فى عيون الشعب

* * *

ولـكن القدر لم يمنعهم مزاياهم وحدها وفضائلهم ، بل منعهم رذائلهم أيضاً وجرائمهم . . . فلم يرتقوا العروش على الجماجم ، ولم يسدوا أبواب الرحمة على البشر ، ولم يخفوا حمرة العار والخجل ، ولم يخفتوا صوت الضمير ، ولم يعطروا معابد ترفهم واستكبارهم بالبخور الذى تحرقه « ربة الشعر »

لقد اتبعوا طريقهم السوى فى وادى الحياة المنعزل البارد ، وساروا فيه صامتين ، لم تتعلم أمانيهم القريبة ، وشهواتهم البريئة الخروج بهم عن صفوف الشعب المناضل على الحياة ، المزاحم على البقاء

* * *

ولـكنهم – مع ذلك – لم تخل قبورهم ، من أثر للذكرى ضئيل : شعور مكسور ، ونقش محطوم ، يستجدى المارة آهة العطف ، وهمسة التقدير ، ويحفظ عظامهم من أن تهان

* * *

إن هذا الشعر — شعر الأميّة الساذجة — الذى ينطق بأسمائهم وأعمارهم ، يقوم مقام التعظيم والتبجيل والرثاء ، وينشر بين القبور نصوصاً مقدّسة ، تعـلم الربين والملايين كيف يصمتون ويتعلمون

* * *

وأى امرىء مهما بلغ من خمول الذكر والهوان على الناس يترك الدفء والنور والسـعادة من غير أن يتلفت الى الوراء فيودع العالم بنظره . . . إن الروح الراحلة تريد أن تتـكئ قبل رحيلها على صدر محب ، والعين المغمضة تحتاج قبل اغماضها إلى دموع الاخلاص . . . بل إن صراخ الحياة لينبعث من صميم القبر فيضرم نارها فى رَمادنا البارد

* * *

وبعد ، فيأيها الشاعر الذى يقوم فى المقابر ، ويندب الموتى المنسيين ، إنى لألتفت الآن إليك ، فأرى رجلا مثلك ، شاعراً هائماً ، قد جاء يبحث عما حلّ بك ، وانتهى اليـه مطافك ، فوجد فلاحاً هرماً فسأله عنك ، فقال له :

لقد طالما رأيناه عند انبلاج الفجر ، يسرع الخطو ليستقبل الشمس من ذروة الهضبة

وطالمـا لمحناه فى الظهيرة متمدداً بجسمـه المنهوك على أقدام تلك الشجرة الهرمة ، وفوق جذورها البادية العجيبـة يرقب الجدول الذى ينساب إلى جانبه ، ويتأمل أمواهه الهادرة المتكسرة ، وطالمـا أبصرناه هائماً على وجهه بالقرب من هذه الغابة باسماً آناً كأنه ساخر من كل شىء ، وآنا عابساً كئيباً كأنه مضنى هدته الآلام ، أو مريض قتله الحب اليائس

* * *

وفى ذات صباح ، نظرنا إلى الهضبة فلم نجده ، فبحثنا عنه فى الذروة ، وعند الشجرة ، وإلى جانب الجدول ، وبالقرب من الغابة فلم نقع له على أثر

ثم رأينا شاعراً آخر يحتل مكانه

ثم رأينا بعـدُ نعشه محمولاً إلى المقبرة ، ترتل من حوله أناشيد الموت

* * *

وها هو ذا قبره ، قائم تحت تلك الشجرة التى كان يجلس اليها ، فتعال اقترب ... اقرأ ما عليه :

« هنا .... فى حضن الارض ، يرقد شاب تجهله الثروة ولا يدرى به المجد ، ولا يعرفه إلا الحزن الذى اصطفاه خليلاً وهو فى المهد

كان كريماً مخلصاً ، فكانت مكافأته عظيمة ؛ منح البائسين كل ما يملك : وهو دمعه : ومنحه الله كل ما يطلب : وهو صديق

لم يحب أن يفيض فى ذكر مزاياه أكثر مما أفاض ، ولم يشأ أن يهتك الستر عن نقائصه ، لأنه أودعها كلّها أمانة فى قلب أبيه ، وعند ربه ... »

على الطنطاوى

من شعر المناسبة

إلى زعيم الأمة الأكبر

للدكتور أحمد زكى أبو شادى

تقبّلْ من الدُّنيا العُلى والتهانئا وعش هانئاً يا جاعل الشعب هانئا
وهيهات أن تنسى أياديك أمة درأتَ الرَّدى عنها، ومازلت دارئا
أتنسى أعاصيرَ السنين التى مضت وإن كنت مَنْ لاقى الأعاصير هازئا
أتنسى جبال الموج حتى كأننا غرقنا، فلم تيأس ونلت الشواطئا
معاذ الوفاء اليوم تنسى قلوبُنا فكل فؤادٍ كان عندك لاجئا
وقد كنت للمجد المقدَّس قارئاً فأصبحت أنت اليوم وحيا وقارئا
لئن عرفَ الشانى بنصرك حقدهُ فكلُّ عظيمٍ ليس يعدم شانئا
وما عرف الشانى المآثر تبتنى وغايتُه للشرّ يعملُ ذارئا
صبرت ولكن فى جهادٍ مُضاعف وفُزْت ولكن عُدت للجهد بادئا
وما القدوة المثلى سواك، وحسبنا هداك، وما يرضى هداك المالئا
ليصخبْ كما يرضى هواه، فللورى عقولٌ ترى الحسنى وتدرى المساوئا
رميت بأقوى حُجة بعد حُجةٍ ويُضحكنى من جاء بالوهم لاتئا
ولو نحن نقبنا وَجدناه دائماً تذبذب حتى ضيع العُمر صابئا
فسِمناه فى هذا التهافت ساخراً وَشِمناه فى هذا التحرُّق طارئا
تقدم زعيم الشعب للفتح ثانيا وَنظم شؤون الحكم سمحا وواضئا
وَجُدْ بغنى الدستور حريةً لنا فقد مات عهد كان للحر رازئاً
وَدُسْ كلّ أفعى فى سبيل كماله فكم دُست من قبل الغنى واللآلئاَ
وَكم قد بذلتِ التضحيات لأجله وَما زلت من حبِّ المنافع بارئا
فأهلاً بمن يغلو بنقدك عامداً وإن فضح الاسرافُ ما كان غابئاً
ستروى له الأيام حزمك خالقا مدَى العدْل وَالحكم المنزه كالئا
لئن كان طفلاً فهو باسمك ناشىء وَحبك كم قد صيَّر الطفل ناشئا
كأنك قد أنجبت جيلاً مؤخراً وَإن لم تكن بالخير وَالعدل ناسئا
كأنك قد أبدعت جيشك غازيا وَأسطولك النامى يجوب الموانئا
سنلقى وَيلقى أمةً شع نورها وَقد كان من فرط التحزب طافئا
وجواً طليقا بالتسامح عابقا ونبعا سريا ليس يُرجع ظامئا
وذكراً أبيًّا منجبا نفع قومه وَقد كان مدفونا فأصبح ناتئا
وَأنك أهلٌ أن تناظر مصلحا سميّك[1]، لا تحيى بلادك جازئا
تحديت فى الماضى المصاعب هادئا كذلك فى الآتى ستلقاك هادئا

(الاسكندرية) أحمد زكى أبو شادى

(١) مصطفى كمال منشىء تركيا الحديثة

ذكرى شهيد كلية الآداب

للشاعر الحضرمى على أحمد با كثير

فى مثل هذا اليوم ثرَّ دمُ تبكى البلاد له ويبتسم
جذلان يمضى للخلود، ولا يلوى به أسف ولا ندم
خَلَعَ الشباب على نضارته لِشباب مجدٍ ماله هَرَمُ
خلع الشبابَ، فويح رَيقّهِ لم توفَ منه للهوى ذِمم!
عينانِ ناعستانِ ترقبُه ويدان فى لطف النّدى، وفمُ
كانت ترى فيه لها حُلُماً فَصَحَتْ ولما ينقضِ الحُلُم!
ونوازع للشِّعر جائشة تهفو عليه أسىً وتضطرم
قد كان يذخره ليُجلِسَه يوماً بحيث تألَّقُ النُّجُمُ
قد كان يأمل أن يتمَّ به للضاد ما ترنو له الأمم
حتى دعا وطنٌ تخفُّ له شيحانُ فى عرنينه شَمَم
مِصْرٌ؛ وأىّ فتًى تُهيب به مصر فليس جوابَهُ «نعم!»
نسى المُنى والأهلَ واحتشدت فى قلبه العزماتُ والهِمم
هذا الحِمى نَهْب يعيث به خصمٌ ألدّ وطامع نَهِمُ!
جاثٍ على الوادى ينوء به ويضيقُ من أنفاسه الكظَمُ
أتظلّ مصرٌ تحت كلكله! أيُهان شَعب كله كرم؟
أتُداس للوادى كرامته؟ أيُصان من غدروا ومن ظلموا؟
هلا فتًى يسخو بمهجته! هلاّ فتى للعزّ ينتقم!
وهناك صاح دمٌ تردّد فى الـ وادى فلبَّاه دمٌ فدم!!
أصغى له (الطاغى) وقبل شكا الـ شاكى فلم يُسمع له كَلِمُ
لا يُسمِعُ الخطباء مظلمةً ما يُسمِعُ الدّمُ من به صمم!
يا مصر لم يفِ غيرَ واجبه مُستَشْهَدٌ لعُلاك ينتقم
أنت الكنانة أرضها ذهب تنمى الفنون، وماؤها شَم

القصص

أقصوصة وصفية

سائق القطار

للأديب محمود البدوى

« تشرب ... ؟ »

« لا ... وأشكرك ... »

فانحنى مساعد السائق ، ووضع القلة الفخارية المفحمة فى ركن من القاطرة ، وانتصب وهو يمسح بيده الماء السائل من جانبى فمه ، وتحول إلى النافذة وقال بعد أن لمح نور إحدى القرى :

« الفكرية ؟ »

« آه ... ... »

« ... ... »

« فحم ... »

ففتح المساعد باب الفرن المستدير ، ورمق النار وهى تتضرم وتلتهب ، وطالعه وهجها وسعيرها ، فارتد عنها وأمسك بجراف الفحم وقوس ظهره وغيب طرف الجراف فى المخزن ، ثم استدار وتقدم خطوة وعينه على الباب ، ورمى النار بالوقود ، فخمدت جذوتها وتلوت ودخنت ، ثم شبت وامتدت ألسنتها على الحديد والتصقت بجدران الفرن ، ودارت على جوانبها وسقفها ، وزادها تيار الهواء ضراماً وسعيراً ... ورمى المساعد النار بجراف آخر ، ثم رقبها لحظة ، وكأنه شعر بحاجتها إلى المزيد فرماها بجرافين معاً ، وضم الباب بيده ، ونصب قامته ويده على مقبض الجراف ، وطرف كمه الممزق يمسح العرق المتصبب الملوث بغبار الفحم وقطرات الزيت ، ونزلت يده على جنبه وتنفس وقال فى صوت هادئ تشوبه بعض المرارة :

« كل شىء تغير فى هذه الدنيا بعد الحرب ... حتى الفحم »

فسأل السائق وعينه على الطريق وظهره إلى مساعده :

« لماذا ... ؟ »

فقال المساعد فى حماسة غير منتظرة وهو ثرثار ضامر ناحل الجسم معروق :

« كان الفحم قوالب ضخمة ... كارديف ... وكان القالب الواحد يسير قاطرة بأسرها .. كنا ننزل القالب فى حوض

وعلى سمائك صحو عاشقة ... هبت سُحيراً وهى تبتسم
ترعى «الجزيرة» فيك نهضتها ... وبحبل ودٍّ منك تعتصم
قد تأملين فكلها أمل ... أو تألمين فكلها ألم
ما تنقلين لسؤددٍ قدماً ... إلا وتقفوها لها قدم
فاستقبلى (العهد الجديد) بما ... تجلى به عن أفقك الظلم
قوى عتاد الجيش تحترمى ... فالجيش دون الحق يحترم !
إنا لفى زمن يسود به ... بين الشعوب الفاتك الحُطم
السيف يخطب فيه مرتجلاً ... فى العالمين ، ويهمس القلم !
بدأ الجهاد اليوم — إذ فرغت ... من قدحه كفاك — يحتدم !
دون المرام مصاعبٌ غُلُبُ ... لكنها بالعزم تُقتحم
وبنوكِ قد عزموا الخلاص ولن ... تقف الرواسى دون ما عزموا !
آمنتُ أنهم بما اتحدوا ... غُلُبُ الأسود وأنكِ الأجم

***

شهداء مصر أيهنكم نُزُلٌ ... بجوار (سعد) يحوطه العِظم
أقسمتم بشراء أنفسكم ... فى حب مصر فبورك القسم
ولتحيَ « مصرُ » ويحيَ « عاهلها »
و « زعيمها » و « النيلُ » و « العلَم »

علي أحمد باكثير

الورشة ونضربه ضربتين على يافوخه ، ومثاها على جنبه ، فيتهشم ويتناثر ، فننضحه بالماء ، وندفع منه الجرافين أو الثلاثة فى النار وننام على حسه ! ! أما الآن فهذا الفحم كميدان الذرة لا خير فيه . . »

فتحول اليه السائق بجانب وجهه ، وبصره لا يزال عالقاً بالقضيب ، وقال باسماً فى خبث :

« تعبت ... ؟ »

« تعبت !! لايزال نور (المنيا) باديا . . رحم الله أيام الشباب ، كنا نعمل فى الورشة أكثر من عشر ساعات وقوفاً على الأقدام ولا نفكر حتى فى الطعام . كان أحسن الله إليه ... »

وحبس سيل الكلام بعد أن بصر بالسائق يتراجع إلى الوراء ويرقب البخار . . وسأله :

« ٥٩ ؟ . . »

« ٨ .... »

ثم نسى ما كان فيه من حديث وأمسك « بالاسطبة » وأخذ يلمع جوانب الفرن وعجز الآلة الضخمة ويزيل الزيت اللاصق بالحديد والنحاس ، والأنابيب الصفراء الملتوية والمعدنية الدقيقة ؛ ولما وصل إلى محبس البخار بدا له أن ينفس عنه قليلاً ، ففعل ، وهب البخار القوى من بوق القاطرة وهو يئز ويئش وطار مع التيار ، ولما قفل المساعد المحبس ثانية رضت أصابعه بعض المفاتيح الصغيرة ، فعبس وكشر ، وصمت محنقاً ، وكان صمته منتهى ما يرجوه السائق !

وكان السائق واقفاً عند نافذة القطار الزجاجية الصغيرة يرقب الطريق ، وهو يدخن ؛ وكان يتحول عن موقفه من حين إلى حين ليلمح الساعة وضاغط الهواء ودرجة البخار ومقياس الطريق ، ثم يعود إلى مكانه عند النافذة ، ويده فى سرواله الأزرق ، وسترته تنحسر عن صدره العريض القوى البارز ، وعلى كتفيه وفى طرف كمه الزيت الملوث بالفحم المنضوح . وكان فى وقفته ساكن الملامح ، هادئ النفس ، ثابت الجوارح ، راسخ القدم ، فعل الواثق من نفسه وعمله ؛ وكان لصلابة عضلاته ووثاقة تركيبه وقوة أعصابه أثر واضح فى ذلك

أما المساعد فقد مال بظهره على ركن القاطرة تحت مخزن الفحم بعد أن أشعل سيجارة من جمرة جذبها من الفرن وانطلق يدفع الدخان ويفكر ، ونظره لا يتحول عن السائق الواقف أمامه فى حلته الزرقاء . ولما مد السائق رجلا وثنى الأخرى وعينه مستقرة على الطريق ، انتصب المساعد وحدجه بطرفه ، وتحول الى ظله الجارى على الأرض ، وأنعم فيه النظر فى سكون حتى بصر به ينسحب بعد لحظات فرفع وجهه ، وكان السائق قد انحنى عليه وفى فمه سيجارة جديدة فأخرج المساعد سيجارته من فمه وناولها إياه ، وقد تلاقت عينا الرجلين واختلطت أنفاسهما ، ونظر المساعد فى حدة الى عينى صاحبه العميقتين السوداوين ذواتى البريق العجيب ، والى ملامح وجهه المعبرة القوية الساكنة وجبهته العريضة البارزة ووجهه الأبيض المستطيل . . وأحس بضعضعه وخوره أمام قوة صاحبه وغلبته ؛ شعر أمام السائق بالعجز والضعف والونى فتحسر وتقبض ، ولما ارتد السائق الى مكانه من النافذة أخذ المساعد يتفرس فيه ، ويقارن بين جسمه القوى المصبوب ، وبين نفسه ، وهو الناحل الضامر المعروق . وفتق هذا التأمل المستكن ذهنه حتى أخذ يستعرض فى مخيلته عمل كل منهما ، وشغله هذا التفكير حتى نسى أن ينفض عن السيجارة رمادها أو يمحو عن فمه ما ارتسم عليه من أسى مشوب بالحقد والحسد ... وانطلق يحدث نفسه :

« ما الذى يفعله هذا السائق . . يحرك القطار فى المحطة ثم يتركه بعد ذلك للأقدار . . ويمضى معظم الليل واضعاً يده فى جيوبه يدخن ، ويتلهى بالنظر إلى الطريق ، وكل ما يعمله هو عقرب الساعة ومقياس البخار والضغط والطريق . . وبعض الأحيان يتواضع ويمسح ما على الساعة من غشاوة !! ثم بعد هذا كله باقى الأوامر : غذ النار . . ند الفحم . . زيت الآلات . . أما أنا فأظل الليل طوله واقفاً على باب جهنم ، أضرمها وأغذيها وأصلى بنارها وأمسح ما على الحديد من غبار وفحم وزيت ، حتى يلمع ويصقل ، وجسمى عليه ضعف قاذوراته . وإذا وقف القطار فى المحطة نزلت تحت العجلات وانبطحت على الأرض لأزيت العدد الصغيرة والمفاصل والدوافع والجواذب وأمسح معدن الذراع ، فحتى هذا يجب أن يكون لامعا ! . وإذا ملأنا مخزن الماء طوقت الخرطوم بذراعى ودفعته عن الخزان بجسمى فيصيبنى هاطله ويزيدنى بلاء على بلائى ... هذا هو عملى وعمله ، ومع هذا فأجره ضعف أجرى ويزيد ، وأوقات فراغى وراحتى ليست كأوقات فراغه وراحته ... وامرأته عاقر وامرأتى تجىء فى كل عام بمولود سعيد !! وأولادى من فرط الطوى ضامرون مهزولون يترقبون الصيب من السماء ليربوا ويكتنزوا ويملأوا البطون بالطعام والسماء لا تجيب ! وهو فارغ

قوى مفتول يفور جسمه بحرارة الشباب ، وأنا قمىء ناحل معروق تقوست قناتى ، وشابت شياتى ، وأضحت جلدتى تتخدد . والحياة تقبل عليه بوجهها وتدبر عنى ... ومن يدرى ؟ ربما كان لقوته وسطوته سبب فى ذلك ، فما تحط الحياة إلا على أمثالنا من الضعاف المرضى المناكيد ، وما كنا مناكيد إلا لأننا مرضى ، ولو كنا أقوياء مثله لخافت بأسنا ، واتقت شرنا ، وأحنت لنا الرأس فسرنا فى مسالكها شامخين ... »

« لحم ... ... »

فاستفاق المساعد من خواطره على صوت السائق الرنان ؛ وفتح باب الفرن وأقبل على النار يغذيها بالوقود وهو صامت صابر

***

عندما جاز القطار محطة (ملوى) كان الليل قد انتصف واعتدل الجو ، وهب النسيم العليل من جنبات الوادى الخصيب ، فأثر هذا الجو الرخى المنعش على خواطر المساعد ، فخف حسده على صاحبه وزالت نقمته عليه ، ووقف ينصت لدوى القطار وهو ينهب الأرض ويطوى القرى والدساكر ، وقد خيم عليها النخيل وطواها الظلام فى جوفه ، حتى بدت صامتة موحشة رهيبة ، ثم بارح مكانه وأخذ يجرف بعض الفحم من المخزن ويهيئه على عتبته للنار ، وبعد أن فرغ من ذلك أشعل سيجارة ونظر إلى السائق وود لو يحادثه ، يثرثر معه فى أى موضوع ، ويتكلم عن أى شىء ، دون أن يكون لكلامه وقع أو غرض أو غاية ، فما كان يعنيه هذا ، وإنما حسبه أن يتكلم لأن الصمت يمله ويضجره ويأخذ بمخنقه ويثير أعصابه .... وفتح فمه ثم أطبقه ، وكان يعرف أن السائق قليل الكلام طويل الصمت . وتنحنح وسعل وأطل من النافذة فطن فى أذنيه التيار الشديد ، وسفى فى وجهه الغبار وجرى على وجهه دخان الفحم ، وسمع صفير قطار من بعيد فبقى فى مكانه ليحيى سائقه إن أمكن . ! ومر قطار البضاعة يجلجل على القضبان ، فقال المساعد : وكأنما انبعث صوته من أعماق هاوية سحيقة

« ٣٦٧ : . ؟ »

« نعم ... »

« من الأقصر ... ؟ »

« آه .. وخزن فى أسيوط ... »

« توفيق شاكر ... ؟ »

فهز السائق رأسه موافقاً ، وصمت المساعد لحظة كأنما يستعرض فى ذهنه صوراً باهتة يحاول بروزها ووضوحها وغير من نبرات صوته وهو يقول :

« كان سائقا للقطار ٧٢ ... أزلوه ... بعض الأحيان تتحكم الأقدار ... »

فلم يقل السائق شيئاً وأخذ يتمثل فى مخيلته صورة حادث توفيق كما سمعه من رفاقه ... ثم وضع يده على جبينه يتفرس فى الطريق ، يستشف الحجب ، ما وراء الغيب ، ما فى بطن الأقدار

فقال المساعد وقد طاب له أن يجد ما يتحدث فيه :

« كان خارجا من ورشة سوهاج ... ليوصل القطار إلى الأقصر ... كانت السرعة أكثر من اللازم ، وكان العامل يتخطى القضبان ... توفيق نفسه لا يدرى كيف مات الرجل .. شهد عليه عامل « البلوك » و « اثنان من الخفراء »

فقال السائق وقد حز فى نفسه الأسى على صاحبه

« سىء الحظ ... وكان عليه أن يحاذر »

فقال المساعد بصوت وإن :

« يولد كثير من الناس ليموتوا تحت العجلات ... فما الذى يدفعه الحذر والسائق والكشاف ونور الكشاف ؟ مرت على المرء كثير من الحوادث العجيبة التى تبعث على الدهشة والتفكير العميق ... كنا قد بعدنا عن ديروط وفلاح مسكين ، على جمله ، ينتظر مرور القطار ، ومر القطار وفزع الجمل ، ورمى الرجل تحت العجلات . قد يكون مر على هذا الجمل مائة قطار وهو ساكن ثابت ولكنه جفل فى هذه المرة لسبب لا نفهمه . »

فقال السائق وقد بدت على وجهه البشاشة :

« ولكن إذا كان الفلاح قد رد الجمل عن حديد المر وبعد به عن الشريط أكان يموت ؟ »

« كان لا يستطيع فى تلك الساعة أن يفعل ذلك ... كان لابد أن يموت فمات »

ومر القطار على حقل كبير من القطن وقد تفتح ونوّر فتحول المساعد إلى الحقل وراقب السائق مقياس الطريق لحظات ثم أدار المحرك إلى اليسار قليلاً ، فقد بدأ الوادى ينحنى والشريط يدور ، وكان يعرف هذه الطريق أكثر من موضع أنفه من وجهه ، وهدأت حركة الآلات نوعاً ، ثم أرجع المحرك إلى مكانه بعد ثوان ، وارتد عن النافذة ووقف أمام الفرن ، وطرفه على الساعة والمقياس ، واستمر هكذا مدة ، ثم أدار المحرك إلى اليسار

مرة أخرى فى شدة حتى تعدى الكثير من الدرجات ، فقد وصل القطار إلى طريق مرمم واهن لا تزال تجرى عليه أيدى العمال فى النهار . . ودار بخلده أن أحد العمال قد يكون ترك سهواً بعض الأدوات الجديدية على الشريط ، فمد بصره إلى نهاية نور الكشاف وثبت نظره على حديد القضبان . . . وفكر فى نفسه أنه بعد نصف ساعة وستمائة ثانية سيدخل محطة أسيوط ؛ وسره هذا كما سره خروجه منتصراً من الطريق المرمم . . وبعد أن لمح المقياس أدار المحرك بالتدريج إلى اليمين ، إلى نهاية ما تتحمله أرض النيل السعيد ! وكان يود أن يعوض بتلك السرعة الجارفة ما قضاه وهو سائر يبطء على الطريق الواهن . . وانطلق القطار كالسهم يطوى القرى ويزلزل تحته الأرض

وقال المساعد :

« النيل عال . . وشديد »

فقال السائق وقد تحول بوجهه إلى النيل فرأى بعض المراكب الشراعية تسير مغالبة التيار

« أتخاف أن تتقطع الجسور ؟ »

« لا ... جسور القطارات هى آخر من يصيبه الأذى دائماً ! »

وبقى نظر السائق ثابتاً على النيل وقد راقه هول الليل عند الأفق البعيد

وأطل المساعد من النافذة وبصره على الأرض الجارية ... وخيم صمت عميق

وقال المساعد بعد دقائق بصوت يرتعش :

« رجل ... »

« ماذا . . ؟؟؟ »

« رجل تحت . . ا ... »

فتلفت السائق فى سرعة البرق حيث أشار مساعده فرأى شبه شبح يضطرب فى غمرة الليل . . فصفر وألقى الشبكة وأدار المحرك الى اليسار فى حذر شديد . . . وكان قد فوجىء بالأمر فاضطرب جسمه قليلاً وجاشت نفسه ... ثم حبس البخار ... وأحس بعد مدة بضغط الفرامل وجلجلة العدد وقد أجبرت على البطء على غير انتظار ، ووقف وروحه تثور ونفسه حانقة ساخطة . كان يود أن يدخل محطة أسيوط فى الساعة الواحدة والدقيقة الرابعة والعشرين ... منذ خمس سنوات لم يتأخر فى حياته مرة .. مرة واحدة . . . كان دائماً يحاذى الرصيف وعقرب الثوانى على الستين . كم كان يشعر بالفخر والزهو والشموخ والتعالى على الأخوان ، كم كان يشعر بالزهو والفخر وهو العارف بأنه المسيطر على الحديد والنار . كان إذا تأخر فى أثناء الطريق يغذى النار ويدفع البخار ويجهد العدد ليدخل المحطة فى ميعاده ... ولكنه الآن سيتأخر لأول مرة فى حياته كسائق سيتأخر ... سيتأخر ... لا دقيقة ولا دقيقتين ولا ثلاثا ... بل أكثر من ذلك . شعر بنفسه تذوب حسرات ، أحس بالآلات تئن وتتوجع وتدق كالطبول ... كانت ضربات الضاغط والدوافع وسحبات الذراع ورجعات « البستون » ... تدوى فى أذنيه كالطاحون البالية ، كالمدافع المنطلقة على غير هدى فى وادى التيه . أحس بدمه يفور ... وروحه تثور حتى عقدت جبينه السحب .. ولكن يده القوية كانت لا تزال على المحرك ، والقطار يحبس نفسه ويغالب قوة دفعه ... أى مأفون هذا الرجل الذى عبر الشريط هكذا وألقى بنفسه الى التهلكة ... ؟ وتصور الرجل وقد تمزق وطارت أشلاؤه ، وطحنته العجلات ، وجرى دمه مع الزيت فتفطر قلبه على الرجل المسكين ... ووقف تتملكه أعصابه الحديدية . صامتاً ... حتى أحس بعد مدة بالآلات تجلجل وتطيل ، والبخار ينش ويئز ، والذراع يغالب ويجاهد ، ويطاوح بنفسه فى ثقل ثم يدركه الونى فيحتضر

* * *

ونزل السائق ودار حول مقدمة القاطرة ، ثم انحنى ودخل تحتها يفحص العدد الصغيرة والآلات المحركة وخرج بعد دقائق ووجهه ينضح عرقا ، وعلى معارف وجهه الساكنة آيات الهدوء المطلق ، ورآه مساعده وهو يستقيم بظهره القوى عند العجلات الأمامية ثم يتراجع خطوتين إلى الوراء ويتقدم تجاهه وهو يضرب بقدميه الزلط الملقى بجانب الشريط ، وكان لصوت قدميه دوى مسموع فى الليل الساكن ، وتوقف المساعد عن مسح عمود الذراع وقبض براحته على « الاسطبة » الملوثة بالزيت القذر ، وقال وهو يميل بوجهه إلى حيث صاحبه :

« لا شىء ... ؟ »

« لا شىء فى العجلات الأمامية ، وإنما أثر الدم واضح فى التروس الخلفية التى أخذ عندها الرجل ، على أن العدد سليمة ولا أثر للحم ولا عظام ... »

فصمت المساعد وكأنه يفكر ، ثم استأنف عمله وكان المشعل الصغير الذى فى يسراه ينتفض ويخبو ويشتعل ويميل لسان اللهب يمنة ويسرة تبعاً لهبات الرياح . . وكان الزيت قد امتزج بعرقه

البريد الأدبي

وفاة عميد الموسيقى الانكليزية

نمت الينا الأنباء الأخيرة السير ادوارد جيرمان عميد الموسيق الانكليزية توفى فى الرابعة والسبعين من عمره بعد حياة موسيقية حافلة ، وكان مولده فى ستروبشير فى سنة ١٨٦٢ ، وتخرج من أكاديمية الموسيق الملكية ، وظهر لأول مرة بقطعته الأوبريت المسماة «الشعراء المتنافسون» The Rival Poets وفى سنة ١٨٨٩ عين السير جيرمان مديرا للموسيق فى مسرح جلوب بلندن ؛ وفى نفس العام وضع تلحينه لرواية رتشارد الثالث لشكسبير ؛ ثم أتبعه بتلحين عدة روايات أخرى من روايات الشاعر الكبير مثل هنرى الثامن وروميو وجولييت ؛ وكما تحب ، وهملت وغيرها . ووضع السير جيرمان قطعاً موسيقية مستقلة نالت نجاحا عظيما ؛ واشتهر بحفلاته الموسيقية الرائعة فى أواخر القرن الماضى ، كما اشتهر اشتراوس فى ڤينا . وله عدة مقطوعات موسيقية شهيرة مثل «الجزيرة الخضراء» التى وضعها لسوليڤان ؛ وانكلترا المرحة ؛ وأميرة كنسنجتون وغيرها ؛ وألف كذلك مجموعة غنائية شهيرة عنوانها Zust so Song Book ؛ وهو الذى وضع نشيد التتويج للملك جورج الخامس ، وعزف أثناء تتويجه فى سنة ١٩١١ .

ومن مؤلفاته أيضاً مجموعة كثيرة من الأناشيد والأغانى ؛ وهو كثير الشبه فى أسلوبه بأسلوب سوليفان ، بيد أنه يسبغ عليه من ابتكاره طابعاً خاصاً ؛ ويتجه بنوع خاص الى الروح الانكليزية القديمة

كتاب عن النيل لأميل لودفيج

ظهر أخيراً فى لندن كتاب جديد للمؤرخ الألمانى الشهير أميل كون المشهور فى عالم التأليف بأميل لودفيج ؛ وهو كتابه الموعود عن « نهر النيل » . وكان لودفيج يشتغل بتصنيف هذا الكتاب منذ عدة أعوام ؛ وقد خطرت له فكرة تأليفه مذ زار مصر والسودان فى سنة ١٩٢٩ ، وأثرت فيه مناظر النيل وروعته الخالدة . وعرض لودفيج فكرته على المغفور له الملك فؤاد فأولاه كل عطف وتشجيع ، ولقى من جانب السلطات كل معونة فى الوقوف على ما أراد من المعلومات ، ومراجعة ما شاء من المستندات . ولودفيج مؤرخ بالفطرة ، وليس بعالم جغرافى ، ولكنه لم يجعل من كتابه عن « النيل » بحثاً جغرافياً جامداً ؛ وإنما اتبع فى وصف النيل ومناظره ووديانه وفيضانه نفس الأسلوب الذى يتبعه فى كتابة التاريخ ، فكما أنه لا يعنى فى ترجمة

الماطل وسال من يده على ساعده ولوث الكثير من جسمه ، فمسح الرجل الزيت فى سرواله ، بعد أن رمى الأسطبة على الأرض ، ودارت يده حول ذقنه ورفع المشعل إلى مافوق رأسه ، واستدار ومد بصره وكان الكثير من الركاب يطلون من النوافذ ووجوههم إلى الخلف ، وظلهم للواقف منهم على الأبواب واضح على الأرض ، وعامل العربة الخلفية يتحدث مع (الكمسارى) وحولهما بعض الناس

واعتمد السائق على حديد النافذة وأخذ يدخن ونظره مسدد إلى الوراء حتى رأى عامل الاشارة يلوح برايته ، فقال لمساعده : « أطلع ... »

فطلع المساعد إلى القاطرة ووضع المزيتة جانبا ، وبعد السائق عن النافذة الجانبية ووقف أمام الآلة يحدق فى الساعة ، ثم مد يده وأدار المحرك إلى اليمين قليلاً فتحركت المجلات الأربع الأمامية الصغيرة فى بطء وثقل شديد ، ودارت المجلات الأربع الكبيرة التى خلفها على الفارغ ، ارتفعت عن القضبان ودارت على الفارغ فى سرعة وجنون ، وزفر القطار وأز البخار ونش ، وشال الذراع وحط ، وتحركت المجلات الأمامية ولامست المجلات التى خلفها القضبان ، وشال الذراع وحط وتقدم القطار وهو يئن ويتوجع وينوح ... تقدم القطار فى بطء وحزن من غير صفير !

محمود البدوى

الأشخاص بالحوادث العامة قدر عنايته بالحوادث والصور الخاصة وقراءة الأفكار والمشاعر من الأعمال والتصرفات الشخصية ، فكذلك قد عني بأن يبرز من النيل شخصيته المعنوية الرائعة وما يرتبط بها من الصور والأفكار التي ترجع إلى غابر العصور ، وتسبغ على النيل طابعاً من العظمة الخالدة . وكتاب لودفيج شعري ووصفي أكثر منه جغرافيا ، وإن كان المؤلف لم يهمل تقديم المعلومات الجغرافية الكافية . وقد صدر كتاب لودفيج بالانكليزية لأول مرة ، ولم يصدر بالألمانية ، لأن لودفيج من الكتاب اليهود الألمان الذين شردتهم ألمانيا الهتلرية ، ونزعت منهم كل حقوق الطبع والنشر في ألمانيا ، وحرمت دخول كتبهم في الأراضي الألمانية ، ولذلك يصدرون اليوم كتبهم في لندن وباريس وامستردام ، تارة بالألمانية وغالباً بالانكليزية أو الفرنسية

وفاة مشترع نمسوي

من أنباء النمسا أن الدكتور يوسف ردلنج المشترع النمسوي الكبير قد توفي في التاسعة والستين من عمره ؛ وقد كان الدكتور ردلنج حجة في المسائل القانونية والادارية وخصوصاً ما كان منها ذا صفة دولية ؛ وكان حتى وفاته عضواً في محكمة العدل الدولية الدائمة ؛ وكان أيضاً من أقطاب الساسة النمسويين في أواخر عهد الامبراطورية ، وقد شغل منصب وزير المالية في آخر وزارة للامبراطور كارل ؛ ثم تولى الوزارة مرة أخرى في سنة ١٩٣١ . ومنذ سنة ١٩٢٦ يشغل منصب أستاذ القانون العام في جامعة هارفارد

وللدكتور ردلنج عدة مؤلفات قانونية شهيرة منها كتاب عن اجراءات مجلس العموم البريطاني ، وكتاب آخر عن الحكومات المحلية الانكليزية ؛ وهما من أحسن الكتب في موضوعيهما

صورة حية للإنسان الأول

نشرت صحف هلسنجفور نبأ غريباً عن عثور بعثة للصيد على مخلوق مدهش نصفه قرد ونصفه إنسان في بعض أحراج ريغا عاصمة لاتفيا . وتفصيل النبأ أن بعثة صيد كانت تجوس خلال إحدى الغابات الكبيرة في تلك المنطقة ، فلحظ بعض أفرادها ذلك المخلوق جاثماً عند ساق شجرة ؛ فلما اقتربوا منه فر هاربا ، وتسلق أحد الأغصان المدلاة ، وصعد إلى أعلى الشجرة برشاقة مدهشة ؛ فصوب أحد الصيادين بندقيته إليه وأطلق النار عليه فصاح المخلوق صيحة مزعجة ، وسقط على الأرض مضرجاً بدمه . ولما قبض الصيادون عليه وجدوه مخلوقا عاريا وقد نما الشعر في جسمه حتى غطاه . فحملوه إلى القرية القريبة ، وهنالك تبين أن هذا المخلوق كان عاملاً في إحدى المزارع ، وقد فر منها منذ بضعة أعوام ولم يظهر له أثر بعد

ولا يستطيع هذا الانسان القرد أن يتكلم ، كما أنه لا يفهم مايقال له ؛ ولكنه يصبح سروراً حينما يقدم اليه اللحم والفاكهة

وقد أثار هذا الاكتشاف الغريب اهتماماً خاصاً في الدوائر العلمية ؛ ويرى بعض الباحثين أن اكتشاف مثل هذا المخلوق يدلل بصورة حية على الصلة القوية التي توجد بين الانسان وبين بعض أنواع القردة ، وهي صلة يدلل عليها العلامة داروين في كتابه « أصول الأنواع » ؛ ثم إن منظر هذا المخلوق يذكرنا بالانسان الأول في أطوار همجيته الأولى في عصور ما قبل التاريخ

أسرار المجتمع الالباني

ألبانيا من البلاد البلقانية القديمة ، ولكنها مازالت غارقة في غمار الماضي ، ولا يعرف عن حياتها الداخلية سوى القليل ، وقد رأى كاتب وصحفي انكليزي معروف هو مستر برنارد نيومان عاش في ألبانيا أعواماً طويلة أن يضع كتابا عما شهده ووقف عليه من أسرار هذه البلاد المجهولة ؛ وأخرج كتابه أخيرا بعنوان « باب ألبانيا الخلفي » Albanian Back Door ؛ ويقول المؤلف إنه دخل ألبانيا من بابها الخلفي فوجدها بلادا لا فن فيها ولا موسيقى ولا آداب ، ولكنه وجد فيها شعبا ترتبط أفراده فيما بينهم بكلمة اللسان فقط . ومن المأثور في تلك البلاد أنه إذا توفي شخص فأن الناس لا يسألون عن سبب وفاته ، ولكن يسألون عمن قتله ؟ ذلك لأن مبدأ الثأر لا يزال يسود جميع الطبقات والأسر ، ولا يهدأ بال انسان حتى يقتل خصمه ؛ وكل فرد في قبيلة يحمل بندقية . ويقول لنا المؤلف أيضا إنه عقد عهد الأخوة الدموية مع ألباني ، ووجد أن أهم آثاره ينحصر في احترام

الأخوين كل لحياة صاحبه . وقد طاف مستر نيومان فى جميع أرجاء ألبانيا بعجلته التى كانت مثار الدهشة ، ولقى فى كل مكان حفاوة ودية بالغة ، واستطاع خلال طوافه وإقاماته العديدة بين مختلف الطوائف والطبقات أن ينفـذ الى الروح الألبانية ، وأن يعرف كثيرا عن أخلاق هذا الشعب وعاداته وتقاليده . ولـكتابه قيمة تاريخية واجتماعية كبرى ، ومعظم الـكتاب الذين كتبوا عن ألبانيا فى العهـد الأخير يقصرون عنايتهم على مسائلها السياسية والاقتصادية ، ولـكن مستر نيومان لا تعنيه هـذه المسائل ، وإنما يحصر جهده فى المسائل الاجتماعية والاخلاقية

كيف يعامل الكتاب فى ألمانيا النازية

أضحت ألمـانيا جحيم الـكتاب الأحرار من كل لون وكل أمة ؛ وقد هجرها جميع كتابها ومفكريها الأحرار مذ عصفت بها ريح الطغيان الحالية ؛ ولـكن ألمـانيا النازية ما زالت تضيق ذرعا حتى بالضيوف إذا كانوا أحراراً ؛ فقد روت بعض الصحف السويدية أن الـكاتب الروسى الـكبير ايفان بونين الذى أحرز جائزة نوبل فى الآداب منذ عامين ، قد عومل فى ألمـانيا عند زيارته لها معاملة سيئة ، وأنه قبض عليه وعذب فى سجن « الجستابو » : (سجن البوليس السرى السيسى) ؛ وكان بونين يقوم بزيارة عادية لمدينة لانداو فى جبال الالب طلبا للراحة والنزهة ، ولـكن بونين معروف بأنه كاتب حر ، وأنه حمل فى بعض كتاباته على النظم الطاغية التى تسود ألمـانيا فى الوقت الحاضر ؛ ومع أنه من الروس البيض (خصوم البلاشـفة) فان مجرد كونه انتقد ذات يوم نظم النازى كان سبباً فى القبض عليه وتعذيبه . وقد أثارت كتابات الصحف السويدية عن هذا الحادث الرأى العام الدولى ، فبادرت وزارة الدعاية الألمـانية إلى إنكاره ، ولـكنها سلمت بأن إيفان بونين كان أثناء زيارته لألمـانيا موضوعا تحت الرقابة السياسية !

حول مباراة المولد النبوى

تناولت الصحف فى الأيام الأخيرة موضوع مباراة المولد النبوى وما انتهت اليـه باختيار رسالة الأستاذ عبد الله عفيفى — على الرغم مما فيها من العيوب التى اضطرت الوزارة إزاءها أن تمنحه نصف المـكافأة — وأشارت بعض الصحف إذذاك إلى أن اللجنة التى ألفت من هيئة كبار العلماء لفحص الرسائل التى تقدم بها ١٣٣ كاتباً من مصر والأقطار العربيـة ، كانت قد اختارت من مجموعها ثلاث رسائل إحداها رسالة الأستاذ عفيفى ، وطلبت هذه الصحف إلى الوزارة بهذه المناسبة أن تقسم النصف الثانى من المـكافأة بين صاحبى الرسالتين الثانية والثالثـة تقديراً لمـا بذلا من جهد ، وتحقيقاً لبعض ما علقا من آمال ، وإنفاقا لهذا المبلغ فى الناحية التى أرصد لها ، ولأن الاقتصار على مكافأة واحدة فى مباراة كهذه فيه شىء كثير من الغبن وتثبيط الهمم لا يتفق مع ما ترمى اليـه المباريات العامة من التشجيع وإظهار الـكفايات المغمورة

ولقد كان غريباً بعد هذا أن ينشر الأستاذ عفيفى بياناً فى بعض الصحف يشكو فيه من الوزارة لأنها لم تمنحه المـكافأة كلها ولم تغض عما فى رسالته من نقص . ويحاول أن يزكى نفسه ورسالته فينشر للمرة الثالثة خطابا أرسله اليه الأستاذ عبد الوهاب النجار أحد أعضاء لجنة التحكيم يصفه فيه بأنه أقدر من كتب فى السـيرة بعد القاضى عياض — وتلك شهادة يشكر عليها الأستاذ النجار ويغبط عليها الأستاذ عفيفى — ثم يذهب الأستاذ فى بيانه إلى أنه سوف ينشر رسالته ، ويحتـكم فيها الى الجمهور لينتصف لنفسه ولرسالته من وزراة الأوقاف

ولا شك أن الأستاذ عفيفى يعلم حق العلم أنه إذا كان فى هذه المباراة غبن أو ظلم فأنه واقع على غيره ، وأنه إذا كان لأحد أن يشكو ويتظلم فأن الأستاذ آخر من يحق له ذلك .

على أنى أعتقد أن فى الأقدام على هذه الخطوة إثارة لحقائق قد تـكون مؤلمة . ولقد كنا نتحاشى ونحن نكاد نلمس الغبن الواقع فى بعض نواحى هذه المباراة أن نلجأ إلى النشر أو الاحتـكام إلى الجمهور احتراماً لرأى اللجنة وتنزيهاً لقرار الوزارة عن مظنة الشك والارتياب . أما وقد اندفع الأستاذ فى هذا الطريق فأنا نؤيده فى فـكرته ، وسوف نستأنف معه الشوط الأخير ، وللرأى العام أن يحكم ، وللتاريخ أن يشهد ، وللحق أن يأخذ مجراه

(حمامات حلوان) محمد كامل حتة

أحد الثلاثة الأول

الكتب

١ – مقتل عثمان بن عفان : للأديب محمود الغزاوى

٢ – الشخصية
٣ – التربية الانكليزية } : تأليف الأستاذ محمد عطية الابراشى

للأستاذ محمود الخفيف

يعتبر مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه من أهم الحوادث فى تاريخ الاسلام ، إذ كان مقتله نتيجة ثورة عاصفة عاتية ، نسى فيها الثوار – والاسلام فى مستهل ضحاه – مانعى عنه دينهم من قتل النفس التى حرم الله ، وامتدت أيديهم الأثيمة فى غير تردد أو اضطراب إلى عثمان بن عفان خليفة الرسول ، وزوج ابنتيه ، وأحد السابقين الأولين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وسال دم الخليفة الشيخ فى عقر داره ، فلم يشن على أحد غارة أو يشهر فى وجه أحد سيفا ، مما ضاعف بشاعة الجريمة ، وزاد تلك المأساة هولاً ونكرا

ولقد انطوت تلك المأساة على معان كثيرة ، فهى وليدة عدة عوامل ، ثم هى أول حادث من نوعه فى الاسلام ؛ ترى فيها ثورة سياسية ، مازالت تنمو حتى انقلبت إلى فتنة ثم إلى طغيان

وفى هذا الكتاب الذى ألفه الأديب محمود الغزاوى ترى دراسة واضحة لتلك الثورة وتصويراً قوياً لما انتهت اليه من مأساة . مهد لموضوعه بمقدمة مبينة عن الخلافة وما كان من أمر تولية أبى بكر وعمر ، ثم وضح ما حدث من الشورى بعد موت الخليفة الثانى ، وأخذ بعد ذلك يدرس عوامل الفتنة فأشار إلى العداوة القديمة بين الهاشميين والأمويين ؛ ثم درس سياسة عثمان وبين عوامل الثورة ، وشرح حال الفتنة فى الأمصار وصور فى الخاتمة المأساة

فالكتاب يعطيك فكرة جلية عن هذا الحادث التاريخى ، وهو مجهود جدير بالثناء ، نرجو أن تعقبه مجهودات أخرى للغزاوى فهو رجل نشاط وأدب . وأريد ألا أختم الحديث عن كتابه دون أن أشير إلى بعض هفوات لا تتفق وما عرف به من فطنة وحصافة ، فهو فى صفحة ١٣ بينا نراه يحار بين أمرين فى تلمس العلة فى عدم توصية النبى لأحد بالخلافة ، نراه فى الوقت ذاته يشير إلى مخافة النبى من وقوع الانقسام والفتن ، فهل لا يعتبر هذا تعليلا ؟ . وفى هامش ٥٢ نرى خطأ مطبعياً لم يصححه ، كذلك لم يبين المؤلف كيف كان جمع الناس على مصحف واحد عاملاً من عوامل الثورة صفحة ٦١ ، وفى صدد الكلام عن إيثار عثمان أقاربه بالخلافة نراه يثبت فى صفحة ٦٥ أن عثمان عزل عن الكوفة محمد بن عتبة وولى سعيد بن العاص ، ولكن المؤلف عند ما راح ينقد هؤلاء الولاة تكلم عن الوليد كوال للكوفة فماذا كان من أمر سعيد بن العاص ؟ ومتى عين الوليد ؟

هذا وفيما عدا تلك الهنات فالكتاب بحث قيم ممتع . ومما يحمد للمؤلف أنه وضع فى آخره ثبتاً مسهباً للمراجع العربية والأفرنجية وأنه عنى بطبعه عناية جعلت الكتاب فى طبعته الثانية هذه أجمل شكلاً وألطف حجماً مما كان عليه فى لباسه الأول ، وهو مطبوع فى دار النشر الحديث للأستاذ الصاوى وثمنه خمسة وسبعون مليما

— ٢ —

يأتى بعد ذلك كتاب « الشخصية » للأستاذ محمد عطية الابراشى وهو كتاب ظريف الشخصية قويها ، يجتذبك إذا رأيته ، ويسرك إذا خبرته : يجتذبك بلطف شكله وحجمه ، ويسرك بما تطالع فيه من عوامل تكوين الشخصية . والأستاذ المؤلف معروف اليوم بكتاباته فى علم النفس ، ولقد كتب عن الشخصية فصلاً فى كتابه فى « علم النفس » ولكن « عن له فيما بعد أن موضوعاً كالشخصية يحتاج إلى كثير من التفصيل والتمثيل ، والآن يسره أن يتقدم إلى قراء العربية وبخاصة شبان اليوم ورجال الغد بذلك الكتاب »

ولقد نحا الأستاذ فى كتابه طريقة سهلة سائغة ، فهو يتعرض للمسألة ثم يوضحها بالأمثلة المتنوعة ؛ ومما يحمد له أنه كان يأتى بها من

الشرق والغرب ، بل لقد كان يتمثل بكثير من الشخصيات العربية ويرينا كثيراً من مواقف البطولة والفضيلة عند العرب ويعرض علينا منهم صوراً ما أجملها وأدقها فى المقارنة بين حاضرنا وماضينا

بهذه الطريقة الشائقة جعل الأستاذ الابراشى كتابه فى متناول كل قارىء فلا يحتاج الانسان إلى كد ذهنه فى تفهمه ، بل إنك إذا تناولته لا تحب أن تدعه حتى تتمه

بيد أنى أحب أن أشير إلى بعض هنات ما أحسبها تنال من شخصية الكتاب إلا بمقدار ما ينال من شخصية العالم الضليع بعض ما تضطره إليه العجلة من الهفوات . فلست أرى رأيه فى المثال الذى أورده فى صفحة ١٠ عن الحجاج وزياد بن عمرو العتكى ؛ وأسأل الأستاذ ما ذا عسى أن يكون موقف الحجاج لو أن زيادا انتقده عند الخليفة وأظهر معايبه ؟ كذلك لا أشاركه رأيه فى أن من أكبر عيوب نابليون شدة قسوته على النوع الانسانى . ثم إنه ذكر نابليون فى صفحة ٥٠ باسم ملك فرنسا وما كان نابليون ملكا فى يوم ما ؛ ثم هو يقول عن باستور إنه أعظم العلماء نفعاً للبشرية وهذا تعميم فى غير محله . هذا إلى أننى لم أفهم ما يرمى إليه فى الفصل التاسع ، فأنه يخيل إلى أنه يعتبر نقص الانسان فى الخلقة كأنه أمر مستحب لا ينبغى أن يخشى المرء منه أو يتوقاه لأنه « ان نقص الانسان من جهة حاول أن يكمل نفسه من جهة أخرى » . وما أظن هذا يقع فى جميع الظروف والأحوال ؛ والأستاذ نفسه يشير فى أول الفصل إلى أن الشخص الناقص فى الخلقة كثيراً ما يضطر إلى التكلف والتظاهر وهما من أكبر ما يهدم الشخصية . وفيما عدا هذا فالكتاب جدير بأن ينتفع به شباننا ، وهو من المؤلفات التى نشعر بأشد الحاجة إليها لنبنى بها الجيل الجديد ، ونطبع رجاله على الفضيلة ، ولذلك فأنى شديد الغبطة حين أقدمه إلى القراء

— ٣ —

أتكلم بعد ذلك عن كتاب « التربية الانكليزية » وهو كتاب آخر للأستاذ الابراشى أو هو دليل آخر على نشاطه العقلى ، ويقع فى نيف ومائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير محلى بأكثر من ثلاثين شكلاً توضيحياً

نهج الأستاذ فى هذا الكتاب طريقة العرض ، فموضوعه وصفياً أكثر منه نقدياً ، يستطيع القارىء بمطالعته أن يلم بنظم التعليم فى إنجلترا والروح التى تسير تلك النظم . وأعتقد أن الأستاذ أحسن بذلك صنعاً ، فما أحوجنا فى مصر إلى مقارنة نظمنا المدرسية بغيرها من النظم فى البلاد المدنة ، إذ ما تزال تلك النظم عندنا مضطربة لا تكاد تتبين لها غاية ، بل لا تكاد تعرف على أى أساس وضعت . نعم إن لكل أمة ظروفها ولكل أمة وجهتها ، ولكن المقارنة على الرغم من ذلك خليقة بأن تكشف لنا كثيراً من عيوبنا وأن ترينا كثيرا من أوجه الاصلاح ، وعلى الخصوص فيما كان له مساس بالقواعد العامة للتربية والغرض منها مما لا تختلف فيه الأمم كلها اختلافاً كبيراً

تطالع فى هذا الكتاب مناهج التعليم الأولى والابتدائى والثانوى فى انجلترا فى المدارس الشعبية والحكومية ، وتتبين فيه الروح التى تسيطر على كل مدرسة ونظامها المحلى والداخلى ، وما يتعلق فيها بالأساتذة وطريقة اختيارهم ومرتباتهم ورؤساء المدارس واعمالهم ، كما تتبين الغاية التى يرمى اليها التعليم فى جملته ، فلقد أسهب الأستاذ فى الأمثلة وإيراد البيانات والجداول التى تقوم فيها الأرقام مقام الكلام ، ثم تطالع الى جانب ذلك فصولا فى الجامعات الانجليزية ونظمها وكليات المعلمين ، وإدارة التعليم فى البلاد والسلطات المحلية والرئيسية والتفتيش المدرسى وأعمال المفتشين . . . الخ

ولقد يقول بعض الناس ، وأراهم محقين فيما يقولون إن الكتابة عن التعليم ينبغى أن تكون كتابة نقدية تحليلية ، أو بعبارة أخرى ينبغى أن يعنى فيها بالناحية النظرية ويكتفى بضرب الأمثلة ، على نحو ما فعل صاحب « سر تقدم الانجليز السكسونيين » مثلا فى كلامه عن التربية فى انجلترا ، وكما فعل مؤلف هذا الكتاب الذى أحدثك عنه فى كلمته التى صدر بها الكتاب ، وهى « كلمة عامة عن العلم فى انجلترا » . بيد أنى أرى من جهة أخرى أن الطريقة الوصفية تضع أمام المشتغل بالتربية مادة درسه فيستخرج منها ما شاء من النظريات ، وهى فى ذاتها طريقة عملية يظهر أثرها قويا كما أسلفت بين نظم ونظم ، وبالمقارنة يهتدى الى كثير من الصواب . وكذلك أميل الى اعتبار طريقة الأستاذ ميزة كتابه بدل أن أراها عيباً فيه ، هذا ومما يحمد له أنه يشير بين حين وآخر الى ما يراه من أوجه النقص فى نظمنا ذاكرا ما يرى من أوجه الاصلاح والعلاج بقدر ما اتسع له المجال ؛ وحبذا لو رأينا له فى القريب العاجل كتابا عن « التعليم فى مصر » ينتقد لنا فيه ما يراه عندنا من خلل ونقص ويبسط لنا آراءه فيما يرى من سبل الاصلاح

الخفيف

العالم المسرحي والسينمائي

الجريمة والعقاب لدستوفسكي

على مسرح الأوبرا الملكية

لناقد «الرسالة» الفني

لم يكن ليدور بخلدي يوم قرأت الترجمة الانجليزية للرواية القصصية كما وضعها دستوفسكي – وذلك منذ سنين بعيدة – أن هنالك من سيخاطر يوماً باقتباس مسرحية منها ؛ فان من أصعب الأمور أن يعمد كاتب إلى هذا الاقتباس دون أن يحجم مرات خوف الفشل . فاقتباس مسرحية من رواية قصصية معناه تلخيصها ، والتلخيص مهما كان وافياً يعطى صورة غير صحيحة عن الأصل ، ولكن جاستون باتيه المخرج الفرنسي المعروف لم يعبأ بكل هذا واقتبسها وأخرجها على المسرح فى باريس فلاقت من النجاح والاعجاب الشيء الكثير مما حدثتنا عنه الصحف الفرنسية

حقاً إنه لحدث عظيم أن تظهر على مسرح مصرى رواية لدستوفسكي ذلك الكاتب الألماني العظيم الذى طبقت شهرته الآفاق ، ونقلت مؤلفاته إلى جميع اللغات الحية ؛ وإنه لنصر عظيم للفرقة القومية أن تخطو خطوة جريئة كهذه وتفتتح موسمها الثانى بهذه الرواية أمام كبار رجال الدولة وشيوخ الأمة ونوابها ، فتعلن فوز الفن العالى والأدب الرفيع

والرواية تقوم على التحليل النفسى العميق ، ولكن فى بساطة ووضوح يسهل تناولها لمن كان على قليل من الثقافة ؛ وهى خالية من العوامل المفاجئة والصناعة التى اعتدنا أن نراها فى المسرحيات الفرنسية . وفيها أوضح المؤلف غاية الرجل الروسى – فى أيام القيصرية – من الحياة ، فهو لا يرى لها غاية غير الألم على عكس الرجل الأوربى الذى يرى غاية الحياة السعادة فيسعى اليها . أما الروسى فيفتتن بالألم ويتكالب عليه ، بل يسعى اليه جاهداً ليصهر فى بوتقته روحا لا يراها مؤدية رسالتها فى الحياة إلا من طريق التفكير والعذاب

نقل المسرحية عن الفرنسية الشاعر الرقيق الدكتور ابراهيم ناجي ، والممثل الأديب فتوح نشاطى ، فجاءت الترجمة سلسلة سهلة مما يلائم موضوع القصة وبساطة الوسائل فى معالجة المؤلف للموضوع ، فكان اعجابنا بالترجمة قدر اعجابنا بالاقتباس

ملخص القصة

الطالب راسكو لينكوف شاب روسى نفور عبوس ، شديد الكبرياء على الرغم من طهارة قلبه ؛ تسممت روحه بفلسفة القوة التى سادت أوربا فى نهاية القرن التاسع عشر ، تخيل اليه أنه شخص ممتاز ، وأنه باعتباره عبقرياً وضع نفسه فوق القانون . وكان يسائل نفسه : « لو كان نابليون قد صادف فى طريقه إلى المجد عوائق وعثرات ، أ كان ينكص على عقبيه ، أم يتقدم فى جرأة ويزيلها ؟ »

كان الرد الطبيعى على هذا التساؤل أن قتل مرابية عجوزا ليثبت لنفسه أنه ممتاز على الناس أجمعين بقوة تتسامى عن الخضوع للقوانين ، فنى رأيه أن هناك أناسا يحق لهم أن يعتدوا على الحياة الانسانية دون أى عقاب ، ولكنه ما انتهى من جريمته حتى أضحى فريسة آلام مبرحة ، فشعر بوحدته القاسية بين الناس ولم يطق البقاء حتى مع أمه وأخته ، وهجر الجميع ليختلف إلى الحانات يختلط فيها بالأوساط الوضيعة

وهناك يلتقى بسكير شيخ جمل يقص على الطالب آلامه وكيف أن إدمانه قد جر على أسرته الوبال من مرض اضطرت معه ابنته أن تسقط فى مهاوى العار لتقوم بأودهم ، فيعطف الطالب على هذا المخلوق الملوث . وتدهم هذا السكير عربة فيقضى نحبه ، ويتعرف الطالب إلى الأسرة البائسة ويساعدها بما تملك يده ويحنو على الفتاة الساقطة التى تقوضت حياتها مثله ويرى فيها ملجأه الوحيد فى هذا العالم

وكان (بوفير) قاضى التحقيق الذى عهدت اليه قضية مقتل المرابية يشك فى الطالب ، وتشاء المصادفات أن يطلع على مقال بتوقيع راسكولنيكوف يشير فيه الى أن هناك طبقة ممتازة من الناس تملك حق ارتكاب الجرائم ، فيلاحقه فى حذر ودهاء ، فهو لا يملك برهاناً ماديا ، لأن يقظة الطالب تفسد عليه كل شىء

وهكذا لا تستطيع العدالة أن تقتص من القاتل ، فهل ينجو من يقتل نفساً بشرية ؟ ! لا ، إنه الضمير يهيب فى نفسه ويعذبه فتهن أعصابه ولا يستطيع أن يحتمل هذه الحياة ، فيسير الى الفتاة ليلقى على منكبيها هـذا السر الذى أنقض ظهره وعجز عن احتماله ، فترى الفتاة ان الانسان وإن انتصر على عدالة الناس إلا أن فى أعماق ضميره عـدالة أسمى وأقسى لا يخفت لهـا صوت حتى يكفر عن جريمته ، فيستمع لها ويخرج من بيتها فيلتقى قاضى التحقيق فيناديه قائلاً « بوفير . انتصر » ويركع أمام أكثر الأفراد الذين ظهروا فى المسرحية ويعترف بجريمته

الاخراج والتمثيل

جهود كبيرة ومصروفات باهظة جعلت الرواية مظاهرة إخراج هائلة . ولقد أعجبنا بالمناظر كل إعجاب ، كما أعجبنا بالتاج القيصرى الذى يعلو الستار الحريرى الجميل الذى يحمل الشعار القيصرى ويفصل بين المنظر والآخر ، والحق أن الجهد الذى بذله الأستاذ عزيز عيد يستحق الشكر

ولـكن ، هل فـكر المخرج قليلا فى أن طريقته هـذه فى الاخراج تتعارض وأهم خصائص الفن الروسى وهى البساطة ؟

إن تعـدد المناظر وإصرار المخرج على إظهارها كاملة البناء جعل التمثيل يمتد بالنظارة حتى منتصف الساعة الثانية صباحا ، فكنا نشهد تمثيل المنظر فى وقت قصير ونبقى طويلاً وطويلاً جداً فى انتظار تهيئة المنظر الذى يليه ، وهكذا كان يضيع الأثر الذى تركه التمثيل من ملل الانتظار الطويل . ولقد كان « المايسترو » المسكين الذى يدير فرقة الموسيقى يعيد ويكرر القطوعة الواحدة حتى يشغل النظارة فأرهق وضاعت آثار قطعه التى تعب كثيرا فى إعدادها ، ولولا ذلك لاستسغناها وصفقنا لـكل مقطوعة منها

إن أهم واجبات المخرج أن يعمل على تركيز إخراجه حتى تأتى الرواية والتمثيل بالأثر المطلوب ، لا أن يتركها هكذا مفككة ؛ وأظن أنه رأى معنا إخراج هملت وروميو وجوليت من الفرقة الايرلندية التى عملت فى الموسم المـاضى على مسرح الأوبرا .

لقد كانت كما قلت فى حـديث سابق على صفحات « الرسالة » تعتمد على منظر واحد وتستعين بستار صغير وبالضوء فى تبديل المنظر ، وهذا لا يستغرق بضع ثوان . ولو أن الأستاذ عزيز عيد عمد الى هذه الطريقة أو قارب بينها وبين طريقته لـما اضطر الى حذف أربعـة مناظر حتى لا يتأخر التمثيل عن منتصف الثانية صباحا . فهل للمخرج أن يترفق بالجمهور ؟ !

تحدث معى أحد المعجبين بالأستاذ عزيز مؤيداً وجهة نظره فى عرض المناظر فى بناء كامل فهو يراها خير من استعمال الستائر مع « الفوندو » ، وإنى أخالف هذا الرأى ، فان استخدام الطريقة الثانية أجل إذ هى تجعل الجمهور أكثر انتباها وأكثر استخداما لعقله من الطريقة الأولى ، وهذه الطريقة هى طريقة بدائية . ولو أنك عهدت الى ممثل مبتـدىء باعداد مناظر رواية كبيرة لما فكر إلا فى اختيار مناظر كاملة البناء لـكل فصل وكل منظر من مناظر الرواية . أما الطريقة الأخرى فلا يلجأ اليها إلا الفنان القوى الذى يتغلب على الصعاب ويلجأ إلى كل جديد ؛ واعتقادى فى عزيز أنه يستطيع هذا ، ولـكنى لا أدري لم لا يفعل ؟

والاضاءة عادية تحتاج إلى بعض العناية ؛ ويجب على المخرج أن يستخدمها أكثر من ذلك لتساعد ممثليه على قوة التعبير . وهناك بعض الاضطراب فى إضاءة منظر المقابر ولا أظنه إلا خطأ غير مقصود نتيجة الاسراع ، وأرجو أن يتلافاه رجال المسرح كما أرجو ألا يضاء الستار الحريرى بضوء قوى صارخ بعد المناظر المؤثرة لأن هذا الضوء يضيع الأثر الحزين من النفوس

لا يتسع لى المجال للتحدث عن التمثيل بافاضة ، وأكتفى اليوم بأن أذكر أن جميع الأفراد قد أدوا جهوداً كبيرة فى سبيل نجاح هذه الرواية ؛ ولـكنى أحب أن ألفت نظر الأستاذ جورج أبيض إلى أنه لم يكن مستذكراً دوره ، فكان صوت الملقن يرتفع لاسماعه فيصل إلينا فى المقاعد الخلفية ؛ وموقفه كذلك مع عباس فارس الذى يعترف له بأنه القاتل لا يحتاج إلى هذه الثورة وهذا الالقاء التراجيدى . والآنسة زوزو الحـكيم عليها أن تعنى بالالقاء ومخارج الألفاظ وبتلوين جملها ؛ أما الآنسة أمينة نور الدين فـكانت تلقى جملها فى خشونة تشبه خشونة الرجال ، وأرجو أن تترفق بالنظارة قليلاً وتخفف من حدتها ؟

يوسف ادريس

أضيفت إلى الديك بحيث يكونان متناظرين ؟ أما أننا يجب أن نتلمس ذلك تلمساً فى روح العصر الذى كتب فيه الحيوان ، وفى التيارات الاجتماعية التى كانت سائرة فيه ، وفى الآثار الأدبية التى بقيت لنا حول هذين الحيوانين

وإذن فأنا أزعم أن هذه المناظرة بين الكلب والديك كانت صدى من أصداء تلك الحالة الاجتماعية الشديدة السلطان فى العصر العباسى ، والتى أخذت تتغلغل فى المجتمع الاسلامى منذ أوائل القرن الثانى ، وبلغت عنفوانها فى عصر الجاحظ وأعنى بها تدافع المنصرين العربى والأجنبى على التأثير فى الحياة مما أنتج تلك الخصومة العنيفة بين العرب والشعوبية ، تلك الخصومة التى جعلت تمتد وتنتشر وتغمر الجو هنا وهنا حتى لم يخلص من سطوتها ذانك الحيوانان المسكينان ، لأن أحدهما كان يضاف إلى العرب والآخر كان يضاف إلى العجم . فالعرب كانوا فى نظر الفرس قوماً جفاة غلاظاً رعاة إبل وغنم ؛ الكلب أصدق أصدقائهم ، وألصق صاحب بهم ، وأعز رفيق لديهم ، وهو ما هو ضعة شأن وهوان منزلة وخبثاً ولؤماً وقذراً ودناءة . والفرس فى نظر العرب كانوا قوماً أنباطاً أصحاب قرية ، قد أخذتهم طبيعة حياتهم بالاستكانة والذلة ، فلا كرم ولا نجدة ولا أريحية ، كل مالهم الدجاج والديكة ، تمثل ضعفهم ، وتبرز بخامهم وضيق حياتهم . وهكذا أخذت الخصومة بين العرب والشعوبية مظهراً ظريفاً من الخصومة بين الكلب والديك والتنابذ بينهما

وهنا يجيء دور المتكلمين الذين أشار إليهم الجاحظ ، ونحن نعرف عنهم أنهم لم يساهموا فى هذه العصبية ، وإن نسب المسعودى إلى طائفة منهم شيئاً منها ، فرد عليه الأستاذ الكبير أحمد أمين فى الفصل الذى كتبه عن الشعوبية فى كتابه « ضحى الاسلام » ، فأرادوا أن يحولوا تيار هذه الخصومة العصبية إلى ناحيتهم ، وأن يصبغوها بصبغتهم ، وأن يجعلوا من هذه المناظرة سبيلاً من سبلهم إلى بيان حكمة الله فى المخلوقات ، ودقائق صنعه فى الكائنات . ثم جاء الجاحظ فأخذ هذه المناظرة وجعلها باباً فى كتابه ، فأفاض فيها وتدفق ، وجمع فيها بين الكلام والحكمة والأدب على طريقته

هذه صورة المسألة كما ثبتت لدينا ، لا تكلف فيها ولا تعسف ، وإن بدت فى أول الأمر غريبة . فأما أن الشعوبية كانت تعيّر العرب باتخاذ الكلاب فأحسبه مما لا نزاع فيه ، فقد كانت لا تفتأ تتجنى على العرب المساوئ والمعايب ، ولعل فى هذا القول الذى يرويه الجاحظ عن بعض المتعصبين على العرب ما يدلنا إلى أى حد كان تجنيهم . قال الجاحظ : « وزعم لى سلمويه وابن ماسويه مطبّب الخلفاء أنه ليس على الأرض جيفة أنتن نتنا ولا أثقب ثقوباً (1) من جيفة بعير ، فظننت أن الذى وهّمهما ذلك عصبيتهما عليه ، وبغضهما لأربابه »

أما الديك فكان عند العرب من أظهر ألوان الحياة الفارسية ، فهم دائماً يضيفونه إلى العجم . ومن ذلك قول الشاعر :

لعمرى لأصوات المكاكى بالضحى ... وسوء تداعى بالعشى نواعبه
أحب إلينا من فراخ دجاجة ... ومن ديك أنباط تنوس غباغبه

وعن قتادة أن أبا موسى الأشعرى قال :
« لا تتخذوا الدجاج فى الدور فتكونوا أهل قرية » ويفسر الجاحظ هذا بأن الديك من خصائص الحياة الدنية ، وكان ولاة العرب حريصين على أن يظلوا عرباً ، وأن يحتفظوا بمواهبهم الحربية التى لا تلبث أن تضعف فيهم ، ثم تتلاشى منهم ، إذا هم ركنوا إلى حياة القرى ، فاتخذوا الديكة التى هى من أبرز مظاهرها

وهكذا نرى أن الصلة وثيقة بين العجم والديك بقدر ما هى وثيقة بين العرب والكلب ، وأن كلا منهما يعتبر من خصائص الحياة الاجتماعية لذويه ، وأن العرب كانوا يكرهون الديك وينفرون منه بقدر ما كان الفرس يمقتون الكلب ويسخرون من أصحابه

وهناك دليل آخر على ما أسلفنا من أن الديك كان شديد الصلة بالأعاجم فيما يرى العرب ، حتى كان يرمز فى العقل العربى إليهم ، وهو — فيما نحسب — دليل قوى ، لأنه يجىء من عالم الأحلام ، ومجالها العقل الباطن فيما يذهب إليه المحدثون من الباحثين . ذلك هو ما حكاه الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان الكبرى » قال : « روى مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه خطب الناس يوماً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنى رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلى ، وهى أن ديكاً نقرنى ثلاث نقرات ، فحدثتها أسماء بنت عميس ، رضى الله عنها ، فحدثتنى بأن يقتلنى رجل من الأعاجم » وهناك رواية أخرى للحاكم

(1) يقال ثقبت الرائحة ثقوباً أى سطعت وهاجت